قلعة صانور وتاريخ آل جرّار

صور من مشاهدات الرحّالة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

أعدّه وترجم نصوصه

الدكتور صلاح جرار

دار المأمون للنشر والتوزيع

قلعة صانور وتاريخ آل جرّار

صور من مشاهدات الرحّالة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

أعدّه وترجم نصوصه

الدكتور صلاح جرّار



المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2010/3/672)

929.256

جرار، صلاح محمد محمود

قلعة صانور وتاريخ آل جرار / صلاح محمد محمود جـرار.-

عمان: المؤلف، 2010

( ) ص.

ر.إ.: 672/ 3/ 2010.

الواصفات: الأنساب / / الرحلات / / التاريخ القديم /

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

طبع في شركة الشرق الاوسط للطباعة - هاتف 4894941 - فاكس 4894945


الذخيرة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمـــــــة:

بدأت قصّة هذا الكتاب قبل بضعة عشر عاماً عندما كنت مديراً لمكتبة الجامعة الأردنيّة، فقد اتصلت بي الدكتورة سلمى طوقان من كليّة الزراعة في الجامعة تسألني إنْ كنت اطلعت على كتابٍ بالإنجليزية يتحدّث في بعض فصوله عن قلعة صانور وآل جرّار، ثمّ قامت مشكورةً بإرسال صفحاتٍ من الكتاب لي، فقرأتُ هذه الصفحات بعناية.

وبعد عدة سنوات دعتني دواعٍ للرجوع إلى هذه الفصلة من الكتاب، وهو كتاب: الحياة الداخليّة في فلسطين (Domestic Life in Palestine) لمؤلفته ماري إليزا روجرز (Mary Eliza Rogers) وهي شقيقة القنصل الإنجليزي في دمشق في منتصف القرن التاسع عشر، وقد زارت قريتي عرّابة وصانورمع شقيقها سنة 1855- 1857، وذلك لدراسة الأوضاع السياسية السائدة في تلك المنطقة.

ولدى عودتي إلى هذا الكتاب وجدتُ نفسي مشدوداً إلى قراءته من بدايته إلى نهايته، فوجدت الحديث عن صانور وآل جرّار يرد في صفحات كثيرة متفرقة ، كما وجدتُ إحالاتٍ إلى رحّالة سابقين زاروا قلعة صانور والتقوا مع شيوخها ووصفوا مشاهداتهم فيها. فرجعت إلى كتب هؤلاء الرّحالة السابقين، حتى أصبح البحث عن هذه الكتب في شبكة المعلومات العالمية وفي المكتبات القديمة والحديثة هواية استحوذت على كثير من أوقاتي واهتمامي. وقد وجدت صعوبات بالغة في الحصول عليها، لأنّ أكثرها مطبوعٌ بين سنتي 1800 و1899، وقرأت نتيجة ذلك ما لا يقلّ عن ثلاثمائة كتاب بالإنجليزية، وقمت بترجمة ما وجدته فيها عن قلعة صانور وآل جرّار.

أمّا رحلات الفرنسيين والألمان فوجدت بعضها مترجماً إلى اللغة الإنجليزية، فقمت بترجمة ما وجدته فيها من الإنجليزية إلى العربيّة. أمّا ما لم أجد له ترجمة إلى الإنجليزية فاستعنت على ترجمته ببعض الأصدقاء ممّن يجيدون تلك اللغات.

وقد اجتمع لديّ من مشاهدات الرّحالة ما يكفي لأن أعدّ كتاباً فيها، يشتمل على مشاهدات الرّحالة في بلدة صانور وما دار بينهم وبين شيوخها وأهاليها من حوارات وأحاديث.

وقد اقتصرت مهمتي –بعد ترجمة النصوص– على إيراد هذه النصوص مرتّبة ترتيباً زمنيّاً حسب تاريخ كلّ رحلة منها. وتركت دراسة محتويات هذه النصوص وربطها

بالأحداث التاريخية التي مرّت بها قلعة صانور، منذ مطلع القرن الثامن عشر وحتى نهاية الحكم العثماني، للمؤرّخين، حيث تمثل هذه النصوص للدارسين والمؤرّخين مصادر تاريخية مهمّة وفريدة، ولاسيّما أنّ أصحابها يُعَدُّون شهود عيان على درجة حسنةٍ من المصداقية والموثوقية.

وقد بلغ عدد الرّحلات التي اشتملت على وصف لقلعة صانور وقاطنيها من آل جرّار اثنتين وأربعين رحلة، منها رحلة واحدة لرحّالةٍ عربيّ، هي رحلة ابن عثمان المكناسي سنة 1785م، ومع أنها الرّحلة العربيّة الوحيدة إلاّ أنها الأقدم في هذه الرّحلات جميعاً، ممّا يجعل لها أهمية خاصّة. وقد أسهبت بعض هذه الرّحلات في الوصف بينما اقتصر بعضها على فقرة أو فقرتين موجزتين.

ولئن كانت هذه النصوص التي وقفتُ عليها ونقلتُها إلى العربيّة هي خلاصة قراءاتي في عددٍ كبير من الرحلات إلاّ أنّ من غير المستبعد أن تكون ثمّة نصوصٌ أخرى في الرّحلات التي لم أتمكن من الحصول عليها بعد، وفي حال عثوري على نصوصٍ أخرى إضافيّة فسوف أعملُ بمشيئة الله على إصدار طبعة مزيدة جديدة تشتمل على ما قد يكون فاتني من مشاهدات هؤلاء الرّحالة.

وقد يتساءل القارئ عن سرّ عناية الرّحّالة الغربيّين بصانور وحرص بعضهم على النزول بها، أو المبيت فيها، أو تناولِ الغداء تحت زيتونها، أو الاكتفاء بوصفها ووصف سهلها، فأقول إنّ صانور تقع على الطريق الرئيسي للحجّ المسيحي الذي يربط الناصرة و الجليل بالقدس الشريف مروراً بمرج ابن عامر وجنين وقباطية وصانور وجبع وبيت إمرين وبرقة وسبسطية ونابلس، وأن وقوعها على رأس تلةٍ تطلّ على مسافة طويلة من الطريق الواصلة بين جنين ونابلس يلفت أنظار المارّة، وتستوقفهم قلعتها التي شهدت أحداثاً تاريخية كثيرة وذات أهميّة كبيرة.

ولعلّ المكانة السياسية التي كانت تتمتع بها هذه القلعة، عندما كان شيوخها زعماء لسنجقيْ جنين ونابلس، جعلها قبلة لبعض الدبلوماسيين من قناصل بريطانيا وفرنسا في القدس ودمشق، مثلما جذبت بعض الرحالة الذين كانوا يحرصون على أخذ قسط من الراحة في أثناء ارتحالهم، ولاسيّما أن شيوخ آل جرّار كانوا يحتفون بهؤلاء الرحالة ويقومون لهم بواجب الضيافة ثمّ يرسلون معهم من عساكرهم من يرافقهم في طريقهم إلى نابلس ضماناً لسلامتهم. وكان كثير من هؤلاء الرحالة يعرجون على صانور في ذهابهم إلى القدس وأثناء عودتهم منها إلى الناصرة والجليل، ولذلك فإننا نجد بعض الرحالة يصفون صانور في

أثناء توجههم من الناصرة إلى القدس، وبعضهم يصفها في أثناء عودتهم من القدس باتجاه الناصرة والجليل، وفريق آخر يصفها في أثناء ذهابهم إلى القدس وعودتهم منها.

ولولا المشقة التي كان يشكو منها بعض الرحّالة من صعوبة صعود التلّة المؤدّية إلى صانور لكون الطريق إليها وعرة وصخرية وشديدة الانحدار من جميع جهاتها، لربّما وجدنا عدداً أكبر من الرحالة الذين دخلوا القلعة والتقوا بزعمائها ووصفوها، كما أنّ وجود طرق ثانوية أخرى تربط بين الناصرة والقدس حال دون مرور عدد من الرحالة بصانور، فمنهم من كان يصل إلى القدس عن طريق سيناء فالعقبة فالبحر الميت، أو مروراً من الجليل والناصرة إلى مرج ابن عامر إلى جبل طابور ثمّ بيسان والغور إلى البحر الميت فالقدس، أو مروراً من الجليل إلى عكا ويافا والرملة ثمّ عسقلان ثمّ إلى الخليل والقدس، لكنّ الطريق الرئيسي التي كان يمرّ منها معظّم الرحالة هي طريق الناصرة ثمّ مرج ابن عامر ثمّ جنين ثمّ قباطية ثمّ صانور ثمّ جبع ثمّ بيت إمرين ثمّ برقة ثمّ سبسطية ثمّ نابلس ثمّ القدس.

ويفهم من بعض نصوص هذه الرحلات وبعض الأخبار التي أوردها الرحّالة أنّه كان لا بدّ لأيّ مسافر عبر حدود منطقة نابلس وجنين من رسائل موجهة إلى حكامها للسماح له بالمرور أو المبيت أو التزوّد ببعض الخدمات في القرى التي يمرّون بها.

أمّا دوافع الرحلة إلى صانور أو وصفها، كما تظهر من خلال كتب الرحالة، فهي إمّا دبلوماسية لاستطلاع الأحوال السياسية التي كانت سائدة في المنطقة، حيث كانت صانور معقل آل جرّار حكام جنين ونابلس في عدة حقب زمنية، وكانت في عين الأحداث السياسية خلال تلك الحقب، أو للتوسّط بين الأطراف المتنازعة التي كانت صانور أحدها، ولذلك لا نجد غرابة في أنّ قلعة صانور قد استضافت عدداً من رجال السياسة الكبار والسفراء والقناصل العرب والأجانب مثل ابن عثمان المكناسي والقنصل البريطاني في دمشق المستر روجرز والقنصل البريطاني في القدس السيّد جيمس فنّ وبعض القناصل الفرنسيّين، إضافة إلى الزيارة التي قامت بها ملكة بريطانيا الملكة كارولاين سنة 1814. كما كان من دوافع زيارة الرحالة لقلعة صانور الدراسات الاستكشافية والآثارية والعلميّة (علماء النبات والحيوان والآثار والجيولوجيا).

ويضاف إلى هذه الدوافع حبّ الرحلة، ولاسيّما أن عدداً من هؤلاء الرحالة قد وصفوا صانور بأنها ذات موقع بديع يثير شهيّة الرحالة لزيارتها والاستمتاع بجمالها، وكذلك أفرط الرحالة في وصف سهل صانور والماء الذي كان يتجمع في مرج الغرق في فصل الشتاء وما يعيش فيه من نباتات وزهور وطيور وغير ذلك.

كما استهدفت الرحّلات إلى صانور وإلى فلسطين وبلاد الشام عموماً البحث عن الآثار اليهودية والمسيحية، والاطّلاع على أحوال اليهود والمسيحيين في هذه البلاد، والقيام بنشاطات تبشيرية، ولذلك كان كثير من هؤلاء الرحّالة من كبار رجال الدين اليهودي والمسيحي.

كما لا يخفى على القارئ الفطن –لدى تأمّله السير الذاتية لهؤلاء الرحّالة واهتماماتهم– ما قد كان يخبئه هؤلاء الرحّالة من أهداف سياسية ونوايا استعمارية غير معلنة، ولاسيّما أنّ بعضهم كانوا ممّن يحملون رتباً عسكرية عالية.

ونتيجة لتنوّع أهداف هؤلاء الرحّالة فقد كان من الطبيعي أن نجد تفاوتاً في مستوى الموضوعيّة لديهم، ولا سيّما إذا قصدوا هذه البلاد وهم معبّأون بمواقف مسبقة وصور راسخة في أذهانهم عن المجتمعات التي يزورونها. وقد أسهم هؤلاء الرحّالة كثيراً في تشكيل صورة الإنسان العربي في أذهان الأوروبيين. ولذلك فإنّ هذه الرحلات تعدّ مصدراً أساسيّاً لدراسة هذه الصورة، وممّا يؤكّد ذلك أن هؤلاء الرحّالة لم يتردّدوا في تناقل آراء الرحّالة الذين سبقوهم وإيرادها في كتبهم كما لو كانت مسلّمات، وفي أحيان كثيرة كانوا يقتبسون هذه الآراء بصورة شبه حرفية من غير أن يذكروا مصادرهم.

ولم تقتصر الرحّلات التي وصفت صانور على رحلات الرجال بل هناك رحلات قامت بها نساء أوروبيات مثل ماري إليزا روجرز والملكة كارولاين وغيرهما.

وإذا ما استثنيا الأماكن ذات الأهمية الدينية الكبيرة كالناصرة والقدس والعيزرية وبيت لحم وسبسطية لوجدنا أن صانور قد حظيت بنصيب وافرٍ من اهتمامات الرحالة الذين زاروا فلسطين، وذلك للأسباب التي ذكرناها، يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الرحّالة يعتقدون أن القلعة يعود بناؤها إلى عهد الحروب الصليبية، ويرى كثير منهم كذلك أن صانور هي بيثوليا القديمة موطن جوديث التي نصبت مكيدة للقائد الأشوري هوليفيرنس الذي خيّم بجيشه في مرج صانور، وتمكنت من قتله وقطع رأسه. ونظراً لذلك فإنّ المؤلفين الأجانب الذين وضعوا أدلّة كثيرة للسوّاح والرحالة إلى فلسطين لم يغفلوا ذكر قلعة صانور، ونبّهوا كلّهم إلى أهميتها وجمالها ومنعتها وبعض الأحداث التاريخية الرئيسية التي شهدتها.

بقيت ملحوظة أخيرة كشفت عنها الرحلات الأجنبية، وهي أنّ قلعة صانور لم تحظ من عناية كتب الرحالة العرب إلاّ برحلة واحدة، هي رحلة ابن عثمان المكناسي المغربي، وهذا أمرٌ طبيعي في ضوء قلّة ما دُوِّنَ من رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ممّا يطرح تساؤلاً مهمّاً جديداً هو: ما سرّ حرص الرحالة الغربيّين

القادمين من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا وأمريكا على تدوين رحلاتهم إلى فلسطين حتى تجاوزت في عددها ألف رحلة، بينما لم يُعْنَ الرحالة العرب والمسلمون الذين زاروا فلسطين والقدس الشريف، على كثرة هذه الزيارات وأهميتها الدينية والعلمية، بتدوين رحلاتهم، إلاّ قليلاً، ولم يصل إلينا من هذه الرحلات العربيّة والإسلامية إلاّ عدد قليل لا يكاد يتعدّى بضع عشرة رحلة.

وثمّة ملحوظة أخرى على هذه الرحّلات الأجنبية، وهي أنها على الرغم من تعدادها الجمّ وأهميتها التاريخية والاجتماعية الكبيرة، لم يترجم منها إلى العربيّة إلاّ عددٌ محدودٌ جداً.

وقد تبيّن لي أنّ كتب الرّحلات الأجنبية تمثّل مصدراً مهمّاً وأساسياً من مصادر الدراسة التاريخية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والآثارية وغيرها لقلعة صانور، بالإضافة إلى المصادر التاريخية العربيّة التي ألّفت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتحتوي على معلومات تاريخية مهمّة عن الأحداث التي مرّت بها القلعة والهجمات التي تعرّضت لها والحروب التي خاضتها. وذلك فضلاً عن الوثائق التاريخية المحفوظة في الأرشيف العثماني وسجلات المحاكم الشرعية في نابلس والوثائق المصرية المحفوظة في متحف قصر عابدين في مصر، فإنّها ذات أهمية تاريخية واجتماعية لتاريخ قلعة صانور وآل جرّار، يضاف إلى ذلك تقارير القناصل الأجانب الذين عملوا في فلسطين إبّان العهد العثماني، وبعض الدراسات الأجنبية الاستكشافية والتاريخية والدينية والآثارية والاجتماعية.

وقد آثرتُ أن أبدأ بالصّعب وبالمهمّ من بين هذه المصادر، وهو كتب الرّحلات، فهي صعبة لأنها تتطلب جهوداً مضنية للوصول إليها أو الحصول عليها ثمّ قراءتها وترجمتها، ومهمّة لأنّ ما تحمله من المعلومات والأوصاف طازجة وبنت ساعتها لكونها وصفاً لمشاهدات شهود عيان يصفون ما شاهدوه بأعينهم وما سجّلوه من حوارات وأحداث كانوا طرفاً فيها، وبعض هذه المعلومات التي يوردونها في كتبهم لا نعثر عليه في مصدر تاريخيّ آخر.

ولا يفوتني، بين يديْ هذا الكتاب، أن أتوجه بجزيل الشكر إلى كلّ من ساعدني، سواءً في ترجمة بعض النصوص الفرنسية إلى العربيّة، أم في تقديم أي جهد أو مساعدة لي في أثناء إعداد هذا الكتاب، سائلاً الله تعالى أن يجزيهم عنّي خير الجزاء.

والله ولي التوفيق.

المؤلّف

عمّان في 2 صفر 1431هـ/ 18 كانون الثاني 2010

تمهيد

ورد أوّل ذكر لصانور –في ما اطّلعتُ عليه من المصادر– في كتاب "أعيان العصر وأعوان النصر" لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت764هـ)[1]، وذلك في ترجمته للأمير المملوكي سيف الدين المنصوري المعروف باسم بهادر آص، المتوفى سنة 730هـ (حوالي 1330م)، وكان القائم بأمر الملك الناصر لمّا كان بالكرك ثمّ نائباً للسلطان في صفد، فقد ذكر صلاح الدين الصفدي أنّه كانت لهذا الأمير المملوكي إقطاعات كثيرة في دمشق وحمص والجولان والبقاع وبيروت والبلقاء وصفد وعكا ونابلس وغيرها، وكان من إقطاعاته بنابلس "صانور بكمالها" والكفر بكمالها، وكفركوس بكمالها. ومعنى ذلك أنّ صانور كانت معروفة قبل القرن الرابع عشر الميلادي. ويرجّح كثير من الرحّالة الغربيّين أن قلعة صانور كانت قلعة صليبية وأن الصليبيين قد بنوها أيام الحروب الصليبية وإبّان وجودهم في نابلس. ولعلّ الموقع المهمّ لصانور الذي يتحكم في مدخل نابلس الشمالي وارتفاعها وإشرافها على جزء كبير من الطريق الواصل بين جنين ونابلس، كان مغرياً على الدوام لإقامة قلاع حربية وأبراج مراقبة عليها.

وكانت نابلس في أيام الحكم الصليبي (1099– 1187م) واحدة من المقرّات الملكية للصليبيين التابعة لمملكة القدس، وقد سكنت بها الملكة ميليسيند (Melisende) ملكة القدس من 1150م حتى 1161م، واستقرّ بها عددٌ كبير من الصليبيين للاستفادة من مواردها الاقتصادية الغنية. وقد أنشأوا فيها الكثير من المؤسسات والكنائس ونُزُلاً للحجاج المسيحيين.

وبعد الأيوبيين حكم المماليك نابلس من سنة 1260م حتى هزيمتهم على يد العثمانيين في معركة مرج دابق في 23 آب 1516م.

وفي عام 1517م أصبحت فلسطين ونابلس تحت الحكم العثماني، حيث قسّم العثمانيون فلسطين إلى ستة سناجق هي صفد وجنين والقدس وغزة وعجلون ونابلس، وكانت تتبع للوالي العثماني في دمشق، وكان سنجق نابلس مقسماً إلى خمس نواحٍ.

أمّا آل جرّار أو بيت الجرّار –حسب بعض المصادر– فهم من الشقران الذين ينتمون

---

(1) حققه الدكتور علي أبو زيد وآخرون، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، ط1، 1998، الجزء الثاني، ص 58.

إلى قبيلة الأزد الغسّانية (1)، وكانوا يقيمون في القسطل من أرض البلقاء، وكان شيخهم يدعى الشيخ زبن، وكان لهم فيها نفوذ كبير وكثرة عدد إلى سنة 1669 عندما وقعت ثورة في الكرك ضدّ العثمانيين، فامتدت الثورة إلى القسطل والبلقاء، وآزر آل جرّار أهل الكرك في ثورتهم، وفي هذه الأثناء كانت بعض الثورات قد نشبت في نابلس – منذ سنة 1657م ضدّ العثمانيين، فقام العثمانيون بنقل مجموعة من الأسر العربيّة من شرق الأردن ومن سوريا إلى نابلس لدعم السلطة العثمانية هناك، فانتقل آل جرّار مع شيخهم زبن إلى مرج ابن عامر. ومقابل هذه الخدمات منحت هذه العائلات أراضي زراعية حول القرى في جبل نابلس. وحتى لا تشكّل هذه العائلات قوّة جديدة موحّدة في نابلس، فقد قامت السلطات العثمانية بتوزيعها في أماكن متباعدة، وكان من بين هذه العائلات عائلة النمر التي جاءت من حمص أو حماة وعائلتا عبد الهادي وجرّار اللتان جاءتا من البلقاء، وعائلة طوقان التي جاءت من شمال سوريا، ووفقاً لترتيبات اتخذت سنة 1723 فقد أسند إلى آل طوقان وآل النمر الإشراف على التجارة في نابلس، بينما أسند إلى آل جرّار زعامة ناحية جبل نابلس(2). وكان جبل نابلس في ذلك الوقت يمتد شمالاً من طبرية إلى سواحل البحر المتوسط، وشرقاً إلى الغور ونهر الأردن من طبرية حتى أريحا، وغرباً من حيفا إلى يافا، وجنوباً إلى حدود سنجق القدس عند قرى سلواد واللبن ورنتيس(3) لكنّ هذه الحدود ظلّت عرضة للتغيير حسب المتغيّرات الإدارية والسياسية والحربيّة.

وكان انتقال عائلة جرّار من منطقة البلقاء إلى مرج ابن عامر في منطقة اللجّون بحدود 1669- 1670، وقد ارتكزت قوتهم الاقتصادية على مدّ نفوذهم إلى سنجق جنين مع نهاية القرن الثامن عشر، أمّا قوتهم السياسية فاعتمدت على وجود ميليشيا مسلحة لهم من الفلاحين وامتلاكهم للحصن المنيع في صانور ممّا جعلهم يسيطرون على المدخل الشمالي

(1) مصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، 1979، ص 166، إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، الجزء الأول- حوادث عهد الإقطاع، مطبعة ابن زيدون، دمشق، 1938، ص 130- 131.

(2) بشارة دوماني، إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس 1700- 1900، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 1998 (ترجمة حسني زينة(ص 46- 49)، الكزاندر شولش، تحوّلات جذرية في فلسطين، ترجمة د. كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان، 1993، ص 247، محمد عزة دروزة، العرب والعروبة في حقبة التقلب التركي، المطبعة العصرية، صيدا، 1981، ج 5، ص 108، إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، الجزء الأول: حوادث عهد الإقطاع، مطبعة ابن زيدون، دمشق، 1938، ص 84- 86.

(3) انظر مصطفى العبّاسي، تاريخ آل طوقان في جبل نابلس، مطبعة دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر، شفا عمرو، 1990، ص 19.

لمدينة نابلس، وتولوا الزعامة في جنين ونابلس لفترة طويلة[1].

ولستُ أستبعد أن يكون لآل جرّار وجودٌ سابق على عام 1670م في فلسطين، فقد ورد اسم علاء الدين بك جرّار في الوثيقة رقم 1034/ 256 من وثائق محكمة القدس الشرعية، والوثيقة مؤرخة في 16 رمضان 937هـ (4/ 5/ 1531م)[2]. فقد كانت حركة الأفراد بين الولايات والسناجق العثمانية حرّة، وكانت القدس قبلة لمن يشاء، وربما يكون بعض أفراد آل جرّار قد سكنوا القدس في وقت مبكر. وكان في القدس أيضاً أشخاص ينتمون إلى عائلة جرّار ولكنهم من المغاربة كما ورد في بعض الوثائق.

ويذكر الأمير حيدر الشهابي في كتابه "الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان" بأنّ آل جرّار عائلة وافرة أصلها من البلقاء وأنهم نزلوا عرّابة وانتقلوا إلى صانور"[3].

ويقول عيسى إسكندر معلوف "أن بني الجرّار من أنسباء بني عبد الهادي ينتسبون إلى عرب الشقران"[4].

وقد أطلق على القرى التي بسط آل جرّار سيادتهم عليها اسم "مشاريق الجرّار" لوقوعها بشكل عام في الشمال الشرقي من الديار النابلسية، وتبلغ نحو عشرين قرية هي صانور وجبع والزاوية وجربا وميثلون وسيريس والجديدة والفندقومية وعنزة وصير والكفير وتلفيت ومسلية وقباطية وعين نينة والجنزور والزبابدة والمغيّر وأمّ التوت وراب[5]، ويضيف كوندر وكيتشنر في كتابهما The Survey of Western Palestine (ج2 ص 155- 158) عصيرة الحطب ومركة وياصيد إلى مشاريق الجرّار. بينما تنتشر عائلة جرّار في برقين والبارد (الهاشمية) وكفرقود وصانور وجبع والفندقومية وميثلون وعرّابة والجديدة وعكا وحيفا ومدينة جنين[6]، وقرى أخرى.

وكانت صانور كرسيّ آل جرّار، وكذلك أصبحت جبع، في بعض الفترات، وقد شهدت

---

(1) بشارة دوماني، ص 50، إحسان النمر، 1: 202- 205، محمد عزة دروزة، العرب والعروبة، ج5، ص 108- 109.

(2) سجل محكمة القدس الشرعية، فهرسة تحليلية، قيود الوثائق والحُجج الشرعية الصادرة من محكمة القدس الشرعية، إعداد عبلة سعيد المهتدي، إشراف أ.د. محمد عدنان البخيت، ج1، 2009، ص 483.

(3) حيدر الشهابي، الغرر الحسان، 3: 800- 801، 811.

مصطفى مراد الدباغ، بلاد فلسطين، الجزء الثالث- القسم الثاني، في الديار النابلسية، مطبوعات رابطة الجامعيين بمحافظة الخليل، ط2، 1985/ ج2، ص117.

(4) مجلة الآثار لمؤسسها عيسى إسكندر المعلوف، السنة الرابعة، كانون الثاني 1927، زحلة- لبنان، ج1 ص 47، مصطفى مراد الدباغ، مصدر سابق ص 117.

(5) الدباغ 2: 117- 147 (الجزء الثالث- القسم الثاني- في الديار النابلسية).

(6) نفسه ص 126.

صانور أحداثاً تاريخية كثيرة، وتعرّضت لعشرات الهجمات والحصارات من اللبنانيين والمصريين والعثمانيين والمتاولة والدروز وولاة عكا ودمشق وغيرهم، وذلك لأنها كانت – بحكم موقعها ومنعتها– تقف حائلاً دون مرور الغزوات التي تأتي من الشمال باتجاه نابلس والقدس، وكان لآل جرّار مكانة سياسية من خلال اتخاذ هذه القلعة معقلاً لهم، ومن خلال المناصب التي أسندت إليهم، ومن خلال تحالفاتهم المختلفة مع القوى المعروفة في لبنان ودمشق وعكا ونابلس والقبائل المختلفة في فلسطين وشرق الأردنّ.

ويقول محمد عزّة دروزة في كتابه "العرب والعروبة في حقبة التغلّب التركي" في حديثه عن آل جرّار وانتشارهم في مرج ابن عامر وجنين ونابلس:"وفي ذلك دلالة على ما كانوا عليه من قوة بأس منذ الأصل برزوا بفضلها في مجال الزعامة والإمارة بعد حلولهم في مرج ابن عامر، ثمّ استمروا متّصفين بذلك في سيرتهم" ويقول في خاتمة حديثه عنهم:"فالواضح أنّ بني جرّار كانوا من الأسر البارزة القويّة في جبل نابلس، وكانت لهم عصبيّة قبليّة، فكان سندهم في بروزهم في مجال الحكم الزعامة المحليّة. وأنهم شغلوا حيّزاً كبيراً من أحداث هذا الجبل الإقطاعية منذ أواخر القرن الحادي عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر"(1).

وفي أصل بيت الجرّار يقول الأمير حيدر أحمد الشهابي في كتابه "الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان" في الحديث عن صانور وأصل بيت الجرّار:

"وهم المشايخ بيت الجرّار القاطنين في قلعة سانور وبعض قرايا، وهم عيلة وافرة، وأصلهم من بلاد البلقة قبل حضورهم إلى جبل نابلوس، والجدّ الأوّل ابتداء حضورهم سكن في قرية عرّابة، ثمّ تفرّقوا في القرايا، ثمّ انتقلوا إلى سانور. وجدّ الموجودين الآن يقال له الشيخ محمّد، وعمَّر الداثر من قرية سانور وجعلها كهيئة قلعة، وحصّنها، وهو الذي حاصره عثمان باشا الكرجي والي الشام في سنة 1178، وحضر الأمير يوسف الشهابي صحبة عثمان باشا المذكور. وبعد حصار تلك القلعة مدّةً ولم يقدر عثمان باشا على تملّكها، فارتحل عنها ورجع إلى الشام، وكان قد زاد عمارها الشيخ يوسف الجرّار وبنى بها سرايا وكتب تاريخاً على البوّابة وهو هذا التاريخ:

كن رزيناً إذا أتتْك الرزايا	وصبوراً إذا أتتْك مصيبة
فالليالي من الزمان حبالى	مثقلاتٌ يلدن كلّ عجيبة

(1) محمد عزة دروزة، العرب والعروبة في حقبة التغلّب التركي، ج5، ص 109، ص 129.

أي أنّه في سنة 1209هـ"[1].

ويُفهم من قوله إنّ الشيخ محمد الجرّار عمّر الداثر من قرية صانور، أن صانور كانت موجودة قبل أن ينزل بها بيت الجرّار وكانت بها آثار داثرة، وأنها كانت غير مأهولة.

وفي حديثه عن عشائر نابلس يقول صاحب المرآة الوضيّة "وأكثر أهل تلك البلاد من المسلمين، وفيها من كبراء العشائر بنو الجرّار وبنو طوقان، وهم مشايخ تلك البلاد وولاة أمورها"[2].

وفي دليل ماكملان لفلسطين ومصر الصادر سنة 1901 يتحدث عن قلعة صانور ويقول إنها معقل قومٍ من نبلاء بلاد الشام العظام في أوائل القرن التاسع عشر[3].

وكانت الدولة العثمانية وولاتُها في دمشق وصيدا وبيروت يرسلون إلى شيوخ آل جرّار في أثناء عملهم متسلّمين لنابلس وجنين من أجل تزويدهم بالإمدادات العسكرية للسير في الحملات العسكرية التي تقوم بها الدولة في أماكن شتى من البلاد[4].

وبسبب الدور السياسيّ الذي لعبته قلعة صانور منذ أن نزل بها آل جرّار في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر، فقد تعرّضت هذه القلعة لعددٍ كبير من الهجمات والحصارات، ممّا جعل منها ميدان معارك وحروب لعقود طويلة من الزمن.

هجوم ظاهر العمر سنة 1735:

كان ظاهر العمر حاكماً لطبريّا والجليل وعكا وقد تمرّد على الحكم العثماني، وحاول مدّ نفوذه إلى الناصرة ومرج ابن عامر وحيفا ومدن الساحل الفلسطيني التي كانت تحت نفوذ إبراهيم الجرّار، وقام بطرد ولاة النوابلسيّة من الطيرة والطنطورة ورتّب فيها ولاةً من عنده، ويقول ميخائيل الصبّاغ في كتابه "تاريخ ظاهر العمر" وكان معاصراً لتلك

---

(1) الأمير حيدر أحمد الشهابي، كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، عني بضبطه ونشره الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1969، 3: 800- 801، 811، وانظر أيضاً: ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث جرت بالشام وسواحل برّ الشام والجبل (1782- 1841)، دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم محافظة، دار ورد للنشر والتوزيع، عمّان، 2004، ص 205- 206.

(2) كرنيليوس فنديك الأميركاني، كتاب المرآة الوضيّة في الكرة الأرضيّة (ألفه سنة 1852) ط2، بيروت، 1870، ص 211.

(3) McMillan, Guide to Palestine and Egypt, London, 1901, P. 75

(4) انظر مثالاً على ذلك في كتاب تاريخ حوادث جرت بالشام، ميخائيل الدمشقي، ص 226، وصفحات عديدة في كتاب غرائب البدائع لحسن بن الصدّيق، أعلام فلسطين لعادل منّاع ص 77.

الحقبة "وكانت مشايخ جبل نابلس يرجع أمرهم إلى أميرهم المتولّي قلعة سانور وهم من بيت الجرّار، وبيت الجرّار يرجع أمرهم إلى بيت قديم"[1]. ويتابع قائلاً:" فلمّا بلغ أمير النوابلسيّة إبراهيم الجرّار ذلك، وكذلك الشيخ ابن ماضي غضبوا جدّاً لذلك، وقصدوا يجرّدوا على ظاهر، فتشاوروا بينهم في ذلك، فاعتمدوا أنهم يكاتبوا رشيد الجبر أمير عرب الصقر ليسلخوه من ظاهر ويكون معهم.... فأجابهم"[2].

ونتيجة لذلك وقعت مواجهة بين قوات ظاهر العمر وقوات النوابلسيّة عرفت بمعركة الروحة قرب قرية المنسي جنوب شرق حيفا سنة 1735، يقول ميخائيل الصبّاغ إنّها انتهت بهزيمة النوابلسيّة وقتل أميرهم إبراهيم الجرّار والشيخ ابن ماضي، ثمّ تبعتهم قوّات ظاهر إلى نابلس "وصعد الجبل إلى أن بلغ قلّته حيث قلعة سانور، وكان محمد الجرّار بن إبراهيم الجرّار أغلق أبواب قلعته حين بلغه ما جرى بأبيه، فنزل عليها وحاصره، فلما رأى ظاهر منعة القلعة وأنه يقتضي لها زمنٌ طويل لحصارها، فتركها ووضع يده على جميع بلادهم الساحلية، وترك حصار القلعة ورجع لعكا"[3].

ثمّ جرى الصلح بين محمد الجرّار وظاهر العمر على أن لا أحد منهم يعتدي على أحد في الناصرة، وأن المرج وحيفا والطيرة والطنطورة الذي أخذه منهم ظاهر العمر قبل الحرب يتنازلون له عنها، وأن يترك لابن جرّار البلاد الساحلية التي تواجه جبل نابلس، وأن يدفعوا لظاهر العمر خمسمائة كيس[4].

وبعد عزل سليمان باشا عن ولاية الشام سنة 1738 وتولّي ابن أخيه أسعد باشا العظم استغل ظاهر الفرصة وسيطر على الساحل بين عكا وعتليت وامتد نفوذه حتى عجلون وحوران والسلط، فتجددت الحرب بينه وبين مشايخ جبل نابلس[5].

وقد قام ظاهر العمر منذ هذا التاريخ وحتى سنة 1771م بمحاصرة قلعة صانور عدة مرات وحاول اقتحامها، مستعيناً تارة بالمتاولة وتارة بالمصريّين بقيادة علي بك الكبير، لكنّ محاولاته جميعاً قد أخفقت[6].

---

(1) ميخائيل الصبّاغ، تاريخ ظاهر العمر، مخطوط بالجامعة الأردنية، ص 17.

(2) نفسه ص 15

(3) نفسه 16 – 17.

(4) نفسه 18.

(5) ظاهر العمر وحكام جبل نابلس (1771 – 1773) مخطوطة بقلم إبراهيم الدنفي السامري، تحقيق موسى أبو ديّة (التمهيد ص 17 – 18).

(6) ينظر صفحات متفرقة في كتاب ميخائيل الصبّاغ، تاريخ ظاهر العمر، وكتاب حسن الشهير بابن صدّيق.

حصار عثمان باشا الصادق الكرجي والي الشام لصانور سنة 1178هـ/ 1764م في زمن الشيخ محمد الجرّار:

وفي سنة 1764 حاصر عثمان باشا والي الشام قلعة صانور، وقد استنجد هذا الوالي على حصارها بالأمير يوسف بن ملحم الشهابي حاكم لبنان، فتوجه الأمير بجيش من جبل الشوف وتوابعه، والتقى بعثمان باشا في الطريق، وسارا معاً وحاصرا القلعة زمناً طويلاً، لكنّهما لم يتمكنا من الاستيلاء عليها وعادا مخذولين، وقيل إنّ السبب في عدم استيلاء عثمان باشا على القلعة هو تقاعس الأمير يوسف عن القتال والحصار لأنّه قيسي، وآل جرّار أصحاب القلعة قيسيون مثله، فمن ثمّ لم يحمل جيشه حملةً صادقة في القتال[1].

وكان السبب في هجوم عثمان باشا على صانور أن جبل نابلس ظلّ على تأييده لمحمد باشا العظم الوالي السابق للشام الذي غصب عثمان باشا الولاية منه، وقام آل جرّار وآل النمر بالاتفاق مع ظاهر العمر ضدّ عثمان باشا الكرجي.

حصار ظاهر العمر والمصريين لصانور سنة 1185هـ/ 1771م:

وعندما ثار علي بك الكبير ضدّ الحكم العثماني في مصر، واحتلّ غزة، لم يستطع محمد الجرّار مساعدة والي دمشق عثمان باشا، بعد أن كان حمدان الجرّار شقيق الشيخ محمد الجرّار وعد عثمان باشا أن يجمع له عشرة آلاف مقاتل من جنين ونابلس، لكنه واجه معارضة من أهالي جبل نابلس تحوّلت إلى تمرّد، هدم على إثره بيت محمد الجرّار في نابلس واضطر للعودة إلى حصنه في صانور، وفي هذه الأثناء استولى مصطفى بك طوقان على نابلس. وقد استعان ظاهر العمر بعلي بك الكبير، وتقدّما نحو نابلس، وفرضا حصاراً على صانور، وذلك في 15 محرم سنة 1185هـ[2].

وقد ذهب الشيخ حمدان الجرّار شقيق الشيخ محمد الجرّار إلى عثمان باشا والي الشام يستأذنه في أن ينضمّ للمصريين وظاهر العمر تجنباً لما قد يلحق صانور من الضرر، وخاصة أنه مضى أكثر من سنة على حصارها، وأن أحداً من الشام لم يأت لمساعدتها.

---

(1) الأمير حيدر الشهابي ت 1835هـ، كتاب تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي وعنوانه: الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، عني بضبطه الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني، بيروت 1969، القسم الأول، ص 63-...، الشيخ طنّوس الشدياق (1859)، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه ووضع مقدمته الدكتور فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1970، ج2 ص 326، إبراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا، مطبعة دير المخلص، صيدا، 1936، ص4.

(2) حسن ابن الصدّيق، غرائب البدائع وعجائب الوقائع، قام بدراسته وتحقيقه الدكتور يوسف نعيسة، دار المعرفة، دمشق، 1988، ص 17-18.

وكانت النتيجة أن آل جرّار تحالفوا مع ظاهر العمر، واستعانوا به على خصمهم مصطفى بك طوقان، وفسحوا المجال لقواته للمرور عبر أراضيهم، من دون عقبات، يوم سارت لمحاصرة نابلس.

ولمّا عزل عثمان باشا سنة 1771 سرّ آل جرّار كثيراً لذلك، فذهب خليل ويوسف ابنا الشيخ محمد الجرّار إلى الشام لتهنئة الوالي الجديد محمد باشا العظم بولاية الشام[1].

وكان ممّا فعله محمد باشا أنّه جعل البرّ ثلاثة أثلاث وقسمه بين أبناء الجرّار: ثلث للشيخ يوسف الجرّار، وثلث للشيخ حمدان جرّار، وثلث للشيخ خليل جرّار، وأعطى متسلميّة نابلس لمصطفى بيك بن طوقان[2].

وقد غضب آل جرّار لأن متسلميّة نابلس خرجت من أيديهم فتشاوروا في ما بينهم، فقرر الشيخ يوسف والشيخ حمدان[3] الاستعانة بظاهر العمر، أمّا خليل، وهو الأخ الصغير ليوسف، فقد رفض ذلك، وظلّ في هوى ابن طوقان، فتلقاهما ظاهر العمر بالإكرام[4]، واتفقا معه على طرد مصطفى طوقان من نابلس، والتحالف مع المصاروة[5]. وقد اتفق آل جرّار وآل النمر على أن يكون الشيخ يوسف الجرّار متسلماً لنابلس مكان مصطفى طوقان الذي فرّ من نابلس بعد تحالف الشيخ يوسف وإبراهيم النمر مع ظاهر العمر، فأصبح الشيخ يوسف متسلماً لجنين ونابلس[6].

حصارات أحمد باشا الجزّار لصانور:

ورد في كتاب المرآة الوضيّة في الكرة الأرضية في الحديث عن صانور:" وسانور ذات القلعة المشهورة، وهي قلعة متينةٌ على جبلٍ لا يُسْلكُ عليها إلاّ من مضيقٍ حرج، عصى فيها الشيخ يوسف الجرّار في أيام أحمد باشا الجزّار، وحاصره فيها مراراً عديدة، وهلك من عساكره خلقٌ كثير، ولم يقدر عليه، وما زالت هذه القلعة نصب عينه ينتهز الفرصة عليها حتى مات سنة 1219 للهجرة"[7].

---

(1) ابن الصدّيق، غرائب البدائع وعجائب الوقائع، ص 78.

(2) نفسه ص 83.

(3) الشيخ حمدان هو عمّ يوسف وخليل (نفسه ص89)، وشقيق محمد الجرّار وأحمد الجرّار أبناء إبراهيم.

(4) نفسه ص 83.

(5) نفسه ص 89.

(6) محمد عزة دروزة، العرب والعروبة، ص 111.

(7) كرنيليوس فنديك الأميركاني، المرآة الوضيّة في الكرة الأرضية (ألفه سنة 1852)، ط2، بيروت، 1870، ص 210.

ومنذ أن عيّن أحمد باشا الجزّار والياً على عكا سنة 1775م قام بعدة محاولات لاقتحام صانور، إلاّ أنّها باءت كلهـا بالفشل، وكان زعيمها في أثناء ذلك الشيخ يوسف بن الشيخ محمد الجرّار[1]، وهو المشهور بلقب "سلطان البرّ"، ووصفه نوفل بن نعمة الله الطرابلسي بأنه مشهور بفرط شجاعته وأنه يشبه أحمد باشا الجزّار إلى حدّ كبير ولا يختلف عنه إلاّ قليلاً[2].

أمّا المحاولة الأولى فكانت سنة 1790م، وذلك أنه في هذه السنة حضر عند الجزّار مشايخ جبل نابلس وبلاد حارثة فلبّسهم الخلع على حكومة بلادهم حسب عوائدهم. وأمّا الشيخ يوسف الجرّار متسلّم جنين فإنّه لم يحضر معهم وبدلاً من ذلك أرسل الهدايا للجزّار حسب المعتاد له من ولاة الشام، فلم يقبل الجزّار ذلك وأمره بالحضور، فرفض يوسف الجرّار، فجهز عليه الجزّار عسكراً من خمسة آلاف مقاتل لمحاربته، فتحصن يوسف الجرّار داخل قلعة سانور، فحاصره الجزّار فيها خمسين يوماً وهو يقصفها بالمدافع والقنابل، إلاّ أن القلعة كانت حصينة جدّاً وذهب الجزّار إليها بنفسه ومعه العساكر، فلم يظفر منها بطائل، واضطر للانسحاب متذرّعاً بقرب أوان قيام الحجّ في تلك السنة[3].

ويذكر ميخائيل الدمشقي في كتابه "تاريخ حوادث جرت بالشام وسواحل برّ الشام والجبل (1782– 1841) أنّه بعد هزيمة الجزّار في هذه المعركة أخذ أهالي جبل نابلس يتطاولون عليه ويشتمونه، فحاول احتلال القلعة ثانية فلم يتمكن من أخذها، فأخذ ينتقم من القرى والمزارع، وقد جاء ذلك متزامناً مع ثورة الدروز عليه في جبل لبنان[4].

وبعد هذه الاعتداءات على صانور توجه يوسف الجرّار إلى والي الشام عثمان باشا وأخبره بما فعله الجزّار، فأكدّ عثمان باشا دعمه للشيخ يوسف الجرّار[5].

وأمّا المحاولة الثانية فكانت في سنة 1794، يقول حيدر الشهابي في كتابه" تاريخ أحمد باشا الجزّار" في حوادث سنة 1795/ 1209هـ[6]:

(1) نوفل بن نعمة الله بن جرجس الطرابلسي، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبرّ الشام، قدّم له وحققه ميشال أبي فاضل، ص 215، الأمير حيدر الشهابي، الغرر الحسان، 3: 811.

(2) نوفل بن نعمة الله الطرابلسي، كشف اللثام (مخطوط) ص 253.

(3) الأمير حيدر أحمد شهاب، تاريخ أحمد باشا الجزّار، نشره ووضع مقدّمته الأب أنطونيوس شبلي والأب أغناطيوس عبده خليفة، مكتبة انطوان، ص 102، 103، 106، 108.

(4) ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث جرت بالشام وسواحل برّ الشام والجبل (1782– 1841)، دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم محافظة، دار ورد للنشر والتوزيع، عمّان، 2004، ص 205– 207.

(5) عبود الصباغ، الروض الزاهر في تاريخ ضاهر، مخطوط بالجامعة الأردنية، ورقة 28.

(6) ص 446– 448، وانظر أيضاً الدكتور ميخائيل مشاقة، الجواب على اقتراح الأحباب، تحقيق الدكتور أسد رستم وصبحي أبو شقرا، وزارة التربية الوطنية، مديرية الآثار، لبنان، بيروت، 1955، ص15.

"والوزير أحمد باشا الجزّار رفع الحرب عن يوسف الجرّار حاكم قلعة سانور بقرب جبل نابلس، واعلم أنّ الجزّار صار له مقدار خمسة أو ست سنوات محاصراً يوسف الجرّار في هذه القلعة ولم يقدر عليه، وفي كلّ سنة لا بدّ أن يصير مرتين ثلاث حرب بينهما، وفي كلّ مرّة ينكسر عسكر الجزّار ويُقتل منه جانب، وقد أنفق أموالاً لا تقدّر على فتح هذه القلعة وذهبت سُدى. ومرّات عديدة كانت تخرج الرجال من الحصار ويحاربون عسكر الجزّار فيكسروه أحياناً في الليل وأحياناً في النهار. وقد أفرغ كلّ جهده ولم يستفد شيئاً.

وفي أحد الأوقات أحضر معلّمين وبدأ يقطع حجاراً ويعمّر قلعةً قدّام القلعة المذكورة. وإذ ارتفع العمار خرجت رجال الجرّار قبل طلوع النهار وهجمت على عسكر الجزّار فقتلوا منه جملة أنفار والباقون ولوّا الأدبار فتبعوهم على الآثار فلم يبقوا منهم من ينفخ النار، ولم يفلت إلا النشيطين الشّطار وطويلو الأعمار. ورجعوا فهدموا العمار وأخذوا الحجار وكسبوا الأذخار (الذخائر) وقهروا الجزّار.

وفي وقتٍ آخر أمر الوزير الجزّار أن يفتحوا لغماً تحت الأرض وجمع معلّمين كثيرين وفعالة وآلات وبدأوا في الحفر. وكان لما قربوا من القلعة أمر يوسف الجرّار البعض من أتباعه أن يبعدوا مقدار رمية سهم عن القلعة ويبدأوا يدقوا هناك بمطارق وآلات حديدية ليلاً ونهاراً، وإذ بلغ المعلّمون في الحفر إلى هذا المكان وسمعوا ارتجاج الأرض من فوقهم توهموا أنهم بلغوا إلى تحت القلعة فبطلوا الحفر، وبعد ذلك وضعوا في المكان باروداً جزيلاً لكي يطلع البارود فيخرب القلعة، ثمّ ألقوا به النار فاشتعل وارتجت الأرض منه فحمل قطعاً من الصخور والحجارة العظام ووقعت بين عسكر الدولة فقتلت منهم كثيرين. أما القلعة فلم تتأذى كليّاً كونها مبنيّة على صخر واللغم بعيدٌ

عنها، وإذ تمّ ذلك فكثيرون من العسكر هربوا ثمّ أخبروا الوزير بما كان فأرسل وأخذ بعض المعلّمين وأمر بقتلهم في عكا. والذين بقيوا من العسكر في سانور خرجت إليهم الرجال من القلعة فقتلوا بعضهم والباقون انهزموا وكان إذا خرج الرجال إلى عسكر الجزّار وغلبوهُ وهزموهُ يُدخلون جميع ما يكسبونه منهم إلى القلعة مثل بارود ورصاص ومدافع وكلل ومغلّ (أغلال) وغيره ويتقون به.

وإذ حضر عبد الله باشا إلى الشام رفع الجزّار قارشهُ عن جبل نابلوس لأنه تبع حكم الشام. وأرسل الجزّار إلى الوزير عبد الله باشا تقادم وهدايا ومال ميرة بحسب العادة. وهو أرسل له الخلاع وطيّب خاطره".

وفي هذه السنة زالت ولاية الشام عن أحمد باشا الجزّار وتولاّها عبد الله باشا العظم،

فقدم له الشيخ يوسف الجرّار التقادم الفاخرة، ودفع له الأموال السلطانية المعتادة، فأرسل له خلعة الولاية على جبل نابلس، ولم يعد سبيل للجزّار إليه[1].

ويقول نوفل بن نعمة الله بن جرجس الطرابلسي في كتابه "كشف اللثام" عن تعيين يوسف الجرّار متسلّماً لنابلس سنة 1795[2]:

"وأحال كذلك محافظة جهة نابلوس إلى ابن الجرّار المشهور بفرط الشجاعة في تلك الجهات، ولا يفرق عن الجزّار إلاّ قليلاً. وعلى إثر ذلك اضطر الجزّار لمصالحة آل الجرّار لكنّ شيخهم الحاج يوسف بقي حذراً من غدره طوال حياته إلى أن مات"[3].

وفي سنة 1802 حاصر الجزّار قلعة صانور مرّة أخرى وجرت بين الجزّار والجرّار حروب كثيرة، تلف فيها من عسكر الجزّار كثرة لا تحصى[4] واستمر الحصار سنة 1803، وكان سبب ذلك أن يوسف الجرّار ساعد أبا المرق في ثورته على الجزّار في يافا، فبعد أن استولى الجزّار على يافا حاصرت جنوده قلعة صانور، وحصلت بين الفريقين محاربات شديدة أضاعا بها نفوساً كثيرة[5]. ويقول الشهابي في كتاب "الغرر الحسان" إنّه وقعت بينهم جملة شرور وعسكر نابلوس يكسب على عسكر الجزّار[6].

وفي سنة 1804م/ 1219هـ توفي أحمد باشا الجزّار في مدينة عكّا "فلم يَبْقَ شاعرٌ إلاّ وفرح بوفاته"[7]، وبذلك يقول حيدر الشهابي من شعر[8]:

قد فرحت الأقطار يوم هلاكه	وتهلّلت فيه الملائك والبَشَرْ
وخاصّة آل الدروز ويوسف	مع كلّ القبائل والزُّمَرْ

ويقول نعمان أفندي قساطلي في كتابه "الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء"[9]:

"وكان الجزّار ظلوماً عاتياً متقلباً سفّاكاً للدماء، بلاّصاً للعباد، قاسياً، وقد فاز

(1) حيدر الشهابي، تاريخ أحمد باشا الجزّار، ص 512.

(2) كشف اللثام، (المطبوع) ص 238، نفسه مخطوط 253.

(3) ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث جرت بالشام، (ط) ص 207.

(4) حيدر الشهابي، أحمد باشا الجزّار (مخطوط بالجامعة الأردنية) ص 92، كشف اللثام، (ط)، ص 242.

(5) حيدر الشهابي، تاريخ أحمد باشا الجزّار (ط) ص 499، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والحكام، ص 242.

(6) الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، 2: 370، إلياس مطر، العقود الدرية في تاريخ المملكة السورية، مطبعة المعارف، بيروت، 1874، ص 160.

(7) حيدر الشهابي، تاريخ أحمد باشا الجزّار، ص512.

(8) نفسه ص 513.

(9) نعمان أفندي قساطلي، كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ط بيروت 1879، ص 84-85.

بشهرة كليّة، وخشيه الناس لشرّه وجوره،..... وكان لا يسمع للدولة العثمانية، ولا يطيع أوامرها، وقد فرح الناس لموته كلّ الفرح، فقال الشيخ مصطفى الرومي مؤرّخاً:

هلك الجزّار ولا عجبٌ ومضى بالخزي وبالإثم

وبميتته الباري عنّا أرّخ قد كفّ يد الظلم"

ويقول الشهابي عن الجزّار:"ولم يَبْقَ في خاطره أمرٌ إلاّ وبلغ إليه، عدا شيء واحد لم يقدر عليه، وهو امتلاك قلعة سانور وضابطها يوسف الجرّار، مع أنّه أنفق في ذلك مالاً جزيل المقدار، فالعزّ لله وحده، وهو الواحد القهّار"[1].

وذكرت المصادر أنّ الجزّار كان في بداية أمره حلاّقاً أصله من بلاد البشناق وأنه ولد سنة 1722 من أمّ يهودية تدعى زينة[2].

وبعد وفاة الجزّار توجّهت إيالة صيدا والشام وطرابلس وإمارة الحجّ إلى إبراهيم باشا والي حلب شقيق سليمان باشا، ثمّ حضر يوسف الجرّار صاحب قلعة سانور فقلّده إبراهيم باشا أحكام جبل نابلس حسب عادته[3].

يوسف الجرّار وغزوة نابليون سنة 1799:

يقول الأمير حيدر الشهابي في كتابه "تاريخ أحمد باشا الجزّار"[4]:

إنّ الفرنسيين أثناء نزولهم على عكا "أقبل عليهم عسكرٌ من الشام ومن قبائل العرب ومن نابلس كان مجموعه مقدار ثلاثين ألفاً". وتتحدث المصادر عن المواجهة التي وقعت بين قوات نابليون بقيادة كليبر وبين هذا الجيش، ممّا ألحق خسائر كبيرة في قوات نابليون وأوقف تقدّمها.

وقد أورد إحسان النمر في كتابه تاريخ جبل نابلس والبلقاء[5] قصيدة على لسان أحمد باشا الجزّار يستنجد فيها بالشيخ يوسف الجرّار على الغزو الفرنسي لعكا، ويطلب منه أن ينسى العداوات التي كانت بينهما، ومن أبياتها:

---

(1) حيدر الشهابي، تاريخ أحمد باشا الجزّار، ص512.

(2) نفسه ص 513.

(3) نعمان أفندي قساطلي، كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ط بيروت 1879، ص 84-85.

(4) 2: 463.

(5) انظر بشارة دوماني: إعادة اكتشاف فلسطين/ أهالي جبل نابلس 1700 – 1900، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 1998، ترجمة حسني زينة، ص 27 – 32، إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة النصر، نابلس 1961، ج2 ص 27 – 29.

على ما يقول المجاهد الذي فاض ما بو   بدمعٍ جرى منّي على الوجنات

....

ويا غادياً منّي على صيدحيّة   تجدّ السّرى لا تأمن السروات

تهدي هداك الله خُذ لي رسالتي   مرقومة بالخطّ من العبرات

اقطع بها مرج ابن عامر وقبّل   تلفي على بلادٍ بها نخوات

تلفي على جنين مع رايق الضحى   تلقى بها علالي وقصور مبنيّات

طق لها بالسرع لا تامن الونا   قبّل على صانور فيها وبات

تلقى بها سبع الفلا سيد الملا   لسنين الغلا صيتو علينا فات

قل له لا تحفظ الزلاّت يا طالب الثنا   مضى الذي مضى زمانه وفات

......

اجتنا الفرنساوي شبه الجراد والحصى   سلاطين سبعة من سبع كرات

......

فكتب الشيخ يوسف قصيدة يستنهض بها أمراء جبل نابلس منها:

قال أبو داود من فؤاد مغرمات   بحسّ بقلبي لهيب اللاهبات

....

آل طوقان اسحبوا لسيوفكم   واعتلوا لسروجهن هالغاليات

آل النمر هالنمورة الكاسرات   عدلوا صفوفكم هالباسلات

محمد العثمان أجمع للرجال   حضّر الأبطال من كلّ الجهات

أحمد القاسم يا ليث جسور   أنت قيدوم الصفوف الماشيات

....

عبد الهادي نوض لا تعطي ونا   انت كسّار الجموع الماشيات

يا نوابلسية نوضوا أجمعين   نوضة العقبان من الجوّ خاويات

سيروا على عكا جميعاً كلكم   لا زمون الشرّ في عكّا بنات

....

قالوا أبو داود من قلب شجيع   ما بقى على الحرب إلاّ الثبات

فلبّى دعوته هؤلاء المشايخ وجمعوا رجالهم وساروا إلى عكّا وحاربوا الفرنسيين، حتى طردوهم من فلسطين[1]. وقد ورد في مخطوطة كشف اللثام لنوفل بن نعمة الله الطرابلسي[2] أنّ يوسف الجرّار كان هو وعساكره مع القوات التي زحفت على العريش لتخليصها من الفرنسيين إلى جانب نصوح باشا والي مصر وأرنبود مصطفى باشا والي مرعش المعروف بدكرمنجي أوغلي ومحمد بك الألفي وغيره من الأمراء المصريين والميريلاي الإنجليزي دوغلاس، وقد حققّت هذه القوة أهدافها بالقضاء على الفرنسيين الذين كانوا في القلعة.

معارك أهلية سنة 1232هـ/ 1819م:

يورد المعلّم إبراهيم العورة في كتابه "تاريخ ولاية سليمان باشا"[3] خبر فتنةٍ وقعت في نابلس بين آل جرّار ومعهم آل عبد الهادي من جهة وآل طوقان ومعهم آل البرقاوي سنة 1819م، قتل فيها سبعة عشر شخصاً من الطرفين عدا الجرحى، ويستغل المؤلف هذه الحادثة ليتحدث بالتفصيل عن عوائد هؤلاء الناس خلال حروبهم، فمما قاله:"إنّ أهالي تلك الجبال أحوالهم غريبة أولاً بطاعتهم العمياء لكبارهم ومشايخهم... وذلك إذا كان فَرَضاً قرية من قرايا شيخة بيت الجرّار بل بأكثر من ذلك أقارب لهم وموجود بينهم نسب قديم أو حديث وكان غرضهم إلى البرقاوي، فمتى حضرت لهم قطعة ورقة صغيرة من البرقاوي فيها: رفاقنا أهالي القرية الفلانية يقتضي توافونا في بارودكم إلى المحلّ الفلاني لأجل الحرب مع فلان" فإذا كانوا يتعشون يتركون العشاء حالاً ويصرخوا (ياهو) ويأخذوا بارودهم ويتوجهوا بكل فرح وسرور كأنهم متوجهون إلى وليمة أو فرح.......الخ".

ثمّ يضيف إنهم يأخذون نساءهم معهم إلى المعركة لتحريضهم، وأنه رأى في حرب صانور العجب العجاب من ذلك.

عبد الله باشا وحرب صانور سنة 1830:

أطلق عددٌ من المؤرّخين[4] على حوادث هذه السنة في صانور وحولها اسم "حرب

---

(1) وقد أورد محمود العابدي هذه الوثيقة في كتابه "أوابد من التاريخ" ط. جمعية عمال المطابع التعاونية، عمّان، 1878، ص 66– 67.

(2) كشف اللثام (مخطوط) ص 281، وكان ذلك في 2 حزيران 1799م، وكان من هدف هذه الجموع مهاجمة الفرنسيين في العريش والانتقام للمجزرة التي ارتكبتها قوات نابليون في يافا أثناء احتلالهم لها في 6 آذار سنة 1799م.

(3) إبراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا، ص 303– 311.

(4) انظر: إبراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا، ص 307، حيدر الشهابي، الغرر الحسان 3: 802.

صانور" وذلك لاتساع ساحات القتال فيها وتعدّد الأطراف المشاركة فيها وطول مدّتها وحجم نتائجها من القتل والتدمير، وما نتج عن ذلك من تحوّلات سياسيّة، كان أهمّها بداية تقلّص نفوذ آل جرّار واندلاع صراعات محليّة دموية في منطقة نابلس.

أمّا حرب صانور التي وقعت سنة 1829- 1830 فكان سببها أنّ الباب العالي في استانبول أنعم في سنة 1829م على عبد الله باشا والي صيدا بولاية القدس الشريف والخليل وجبل نابلس، وبالتالي خرجت القدس ونابلس من تبعيتها لولاة الشام إلى ولاة صيدا، كما طلبت الدولة العثمانية من عبد الله باشا أن يجمع من القدس والخليل والقدس ونابلس الأموال المعتادة، فعند ذلك قام عبد الله باشا بتوجيه أوامره لمشايخ تلك المقاطعات للحضور لديه والاتفاق معهم على جمع المال، وفي هذه الأثناء كتب والي دمشق محمود شركس باشا إلى المتسلمين في القدس ونابلس بعدم طاعة عبد الله باشا، فلّما علم عبد الله باشا بذلك قام بعزل متسلّم نابلس الشيخ عبد الله الجرّار وولّى مكانه مصطفى بك طوقان، ثمّ أخرج القدس وجنين من آل جرّار وولّى عليهما مملوكين من مماليكه. وقد انقاد معظم الزعماء لعبد الله باشا ما عدا الشيخ عبد الله الجرّار والشيخ حسين عبد الهادي، فانتهز أسعد بك طوقان الفرصة وأوغر صدر الباشا عليهما، فأرسل الباشا يستدعيهما، فذهب الشيخ حسين عبد الهادي إلى عكا وقدّم الطاعة، أمّا الشيخ عبد الله الجرّار فامتنع عن الذهاب والتجأ إلى حصن صانور، وعندها طلب عبد الله باشا من الشيخ عبد الله الجرّار أن ينقاد إلى الطاعة ويسلّم حصن صانور إليه، فأبى وأغلق الأبواب في وجه رسل الباشا، فأمر الباشا عندئذٍ بحصار صانور ودكّها دكّاً، وأرسل المدافع والقنابر إليها وبدأ الحصار ودام مدة دون جدوى، وتكاثر المقاتلون من جبل نابلس، وحاصروا عسكر الباشا، فاضطر هذا أن يستغيث بالأمير بشير أمير لبنان (وهو الأمير بشير بن الأمير قاسم بن الأمير عمر الشهابي)، فجمع الأمير بشير جيشاً كبيراً يتألف من ألفي جندي من مقاطعات لبنان، وسار بهم إلى عكا، وعند وصوله إلى عكا، قال له عبد الله باشا بأنه سوف يقتل نفسه إنْ لم يأخذ قلعة صانور "إن لم أقدر على أخذ قلعة صانور ألتزم أني أضع جوز فرودي في صدري وأقتل حالي". فوعده الأمير بأنه سوف لن يفتأ في الهجوم عليها حتى يدخلها.

وقد أورد حيدر الشهابي في كتابه "الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان" تفاصيل دقيقة عن تلك الحرب وذكر أسماء القتلى والجرحى من اللبنانيين الذين حاصروا القلعة

وأسماء القرى التي كان أبناؤها يدافعون عن صانور مع عدد من كان منهم فيها[1].

وأسوق هنا بعض ما وصف به الشيخ طنّوس الشدياق هذه الحرب[2]:

"وفيها كتب الوزير[3] إلى الأمير[4] أن يهيئ له من بلاده ألفي مقاتل لفتح قلعة سانور رغماً من النابلسيين العاصين، فهيأهم من مقاطعات البلاد. ثمّ كتب إليه أن يوجه الرجال صحبة أحد أولاده، فجمع الأمير الرجال إلى بتدين، ونهض بهم إلى جسر الأولي ومعه ولده الأمير خليل وحفيده الأمير محمود وخيّم هناك.

وفي اليوم الثالث افتتاح سنة ألف وثمانمائة وثلاثين نهض الأمير بالعسكر من الأولي إلى عكا فأمر الوزير بنزوله في قصر البهجة ونزول عسكره حوله في الخيام وأن تلتقيه العساكر بالموسيقى فالتقوه وأنزلوه وعسكره كما أمر الوزير. ومن الغد أرسل الوزير يدعوه إليه إلى المدينة فتوجه بأربعة أنفار من عبيده.

ولما أقبل على المدينة أمر الوزير أن تلتقيه أرباب دولته فالتقوه ولما دخل على الوزير استقبله بالبشاشة والإعزاز وأنعم عليه بسلاح ثمين، وفاوضه في فتح تلك القلعة، ثمّ استأذنه الأمير ورجع إلى منزله. ومن الغد دعاه الوزير إليه فسار ومعه ولده وحفيده وبعض أنفار، فأنعم الوزير عليه بخلع سنية وجواد مزين، وأنعم على الأمير خليل وولده بسلاح ثمين، وحث الأمير على إلقاء الهمة بأخذ القلعة قائلاً "إن لم آخذ هذه القلعة أقتل نفسي"، فأجابه الأمير: إني لا أفتأ أهجم عليها برجالي حتى أدخلها. فدعا له الوزير

---

(1) الأمير حيدر أحمد الشهابي، كتاب الغرر الحسان، 3: 802- 817، وعن أخبار هذه الحرب انظر: طنّوس الشدياق (1859)، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه ووضع مقدّمته الدكتور فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1970، 2: 440- 443، 1: 170، 177، 183؛ نوفل بن نعمة الله الطرابلسي، كتاب كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام، ص 270 (المطبوع)، يوسف الدبس، الجزء الرابع من تاريخ سورية، المجلد الثامن، المطبعة العمومية، بيروت، 1905، ص 645- 647، ميخائيل مشاقة، الجواب على اقتراح الأحباب، ص 108- 109، إلياس ديب مطر، العقود الدرية، ص 160- 161، رستم باز، مذكرات، حققها فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ط 2، 1968، ص 28، كرنيليوس فنديك الأميركاني، كتاب المرآة الوضيّة، ص 210، الدكتور أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز (1804- 1841)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1956، ص 41- 44، إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة ابن زيدون، دمشق 1938، ج1، ص 239- 244، William R. Polk, The Opening of South Lebanon 1788- 1840, Harvard University Press, P.90- 91, 1963

(2) الشيخ طنّوس الشدياق (1859)، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه ووضع فقدّمه الدكتور فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1970، 2: 440- 443.

(3) يقصد: عبد الله باشا والي عكا.

(4) يقصد: الأمير بشير الشهابي أمير جبل لبنان.

بالتوفيق، وكتب إلى الأمير أمين كتاباً مضمونه أنه يكـون منفـذاً للأوامـر كوالـده. ولّما رأى الأمير احتياجه إلى زيادة العسكر كتب إلى ولده الأمير أمين أن يجمع عـسكراً ويرسـله إليـه. ونهض بعسكره إلى مدينة الناصرة وخيّم خارجها. ومن الغد نهض إلى قريـة جينـين، وعنـد الصباح سار إلى تجاه قلعة سانور، فالتقاه مـدير الـوزير وجميـع رؤسـاء العـساكر بالموسـيقى وإطلاق البارود، وتجدّد الحصار على القلعة بإطلاق المـدافع فانهـدم أكثـر أعاليهـا. وأرسـل الأمير رجاله يقطعون الطريق على الآتين من نابلوس إلى المزار المحاذي القلعة.

وفي تلك الليلة رأى أولئك الرجالة أناساً نابلسيين قادمين إلى ذلك المزار فاطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا منهم نفراً وهرب الباقون.

وفي ذات ليلة خرج المحاصَرون من القلعة ودهمـوا الأرنـاؤوط النـازلين قـرب المـدافع وانتشب الحرب بينهم فانكسرت الأرناؤوط وهجم النابلسيون على المدافع ليأخذوها وظـل باقي عسكر الوزير متربصاً، فأرسـل الأمـير جماعـة وهجمـوا عـلى النابلـسيين فـانهزموا إلى القلعة، واقترب عسكر الأمير إلى حائطها وكانت النساء تغمس اللحـف بالزيـت وتـشعلها وترميها من القلعة خارجاً لتنظر رجالهن عسكر الأمير ويطلقوا عليه الرصاص، ودام القتال إلى الصباح فقتل من عسكر الأمير أحد عشر رجلاً ودام القتال بعد ذلك ثلاثة أيام.

وفي غضون ذلك حضر الأمير عبد الله حسن إلى هناك، ثمّ تجمع النابلـسيون الخـارجون عن الحصار ومعهم ثلاثمائة فارس من العرب وأتوا إلى قرية عجّة وقرية الفندقومية القريبتين من المعسكر قاصدين منع العسكر عن ورد الماء، وانضاف إليهم جماعة، حتى صـاروا جيـشاً وافراً، وأطلقوا فرسانهم إلى ذلك المقصد. وفي ذات يوم توجه مـن العـسكر جماعـة يـستقون الماء فغارت عليه الفرسان فانهزموا فادركوا منهم اثنين من خدم الأمير فقتلوهمـا. وفي اليـوم الثاني توجه جماعة من العسكر أيضاً يستقون الماء فغاروا علـيهم وقتلـوا مـنهم نفـرا، وعنـد الظهيرة توجه جماعة آخرون يـستقون المـاء فغـاروا علـيهم وانتـشب الحـرب بيـنهم، فبـادر لنجدتهم بعض عسكر الأمير بغير أمره وعلمه، فحين بلغه ذلك نهـض ومعـه ولـده الأمـير خليل وحفيده الأمير محمود ليمنعهم عن القتال لأنهم كانوا حينئذٍ غير مرتبين لـه. ولما رأى الشيخ ناصيف النكدي ذلك أصحب معه نحو مائتي رجل من دير القمر وبـاقي المناصـف، ونهض أيضاً الـشيخ حـسين والـشيخ فـارس التلحوقيـان بنحـو مائـة رجـل مـن رجـالهما، وهجمـوا جميعـاً عـلى القـوم المجتمعـين في صـحراء عجّـة، وانهزمـوا إلى تلـك القريـة، فجـدّوا في إثــرهم...... وحــاصروهم فيهــا، فــانهزموا منهــا، فأحرقهــا العــسكر

وقبضوا على المحاصرين الباقين منهم في تلك القرية، وجعلوا يذبحونهم كالغنم فقتل منهم تسعة وستون رجلاً واعتقل أربعة عشر رجلاً بعضهم من المشايخ بني الجرّار، وقتل من عسكر الأمير أربعة عشر رجلاً، فأرسل الأمير تلك الرؤوس والأسرى إلى المدير فأرسلهم إلى الوزير. أما الشيخ ناصيف فلما حضر إلى خيمة الأمير استقبله بالبشاشة والإكرام وقبّله وأمر له بفرس من الخيل الجياد مزينة، ثمّ لما وصلت الرؤوس والأسرى إلى الوزير كتب إلى الأمير كتاباً يمدح به همته ودرايته وشجاعته".

ويذكر نوفل بن نعمة الله الطرابلسي في كتابه "كشف اللثام" أنه عندما تشدّد الحصار على القلعة صارت النساء تغمس اللحف بالزيت وتشعلها وترمي بها من القلعة ليرى رجالهنّ عساكر الأمير على ضوئها، وما زال هذا حالهم حتى اصطلحوا وسلمت القلعة، وأخذ بنو الجرّار يخرجون منها بعيالهم وأمتعتهم، وأرسل الأمير معهم ابنه خليلاً ليحافظ عليهم في الطريق حتى يصلوا إلى مواطنهم، وبلغت مدة الحصار ثلاثة أشهر، فأمر عبد الله باشا بهدم القلعة إلى الأساس وخرق مغائرها وهدم آبارها، وألبس مدافعه جوخاً أحمر علامة لظفره بها، فغضب الأمير بشير من ذلك، ورجع توّاً إلى بيت الدين"[1]

وفي كتابه الذي أرسله عبد الله باشا إلى الأمير أمين شقيق الأمير بشير الشهابي ليخبره بالسيطرة على صانور، وصف عبد الله باشا قلعة صانور ثلاث مرّات بالقلعة المنحوسة، وذلك لقوتها ومنعتها وكثرة القتلى الذين سقطوا على أبوابها وهم يحاولون اقتحامها[2].

وبعد انتهاء الحرب، وصل إبراهيم باشا كتخدا والي الأمير بشير، ومعه مشايخ جبل نابلس إلى عكا، وعند دخولهم على عبد الله باشا أنعم على الشيخ عبد الله الجرّار في متسلميّة مدينة نابلس[3].

ثورة أهل فلسطين على إبراهيم باشا المصري سنة 1834:

عندما نزل إبراهيم باشا الديار الشاميّة وأشرف على عكا من الجهة الجنوبية في 20/ 11/ 1831، استعدّ عبد الله باشا لقتاله، وكتب بخطّ يده إلى الأمير بشير حاكم لبنان يستنجده لهذا الأمر، ويقول له:

إنّ المشايخ بني الجرّار وبني صقر وعرب السلط وبني صخر ينتظرون قدومه إليهم

---

(1) يقصد: الأمير بشير الشهابي أمير جبل لبنان.

(2) الأمير حيدر الشهابي، الغرر الحسان، 3: 811- 812.

(3) الأمير حيدر الشهابي، الغرر الحسان، 3: 812.

ليكون رئيساً عليهم، وفي أثناء ذلك يذكّره بالصداقة..... القديمة والمحبّة[1]. وكان محمد علي باشا قد أذاع بين السوريين أنه إنما كان ينوي الهجوم على عكا لأجل الانتقام للسلطان من عبد الله باشا لمروقه مراراً من طاعة مولاه ودكّ قلعة صانور إلى الحضيض بدون إذن السلطان[2].

لكنّ القوة الطاغية التي قادها إبراهيم باشا إلى بلاد الشام وعلاقة إبراهيم باشا بالأمير بشير أديّا إلى سرعة وقوع البلاد تحت حكم إبراهيم باشا، وكان ممّا فعله في نابلس أنه أعاد تقسيم المناصب السياسية، فجعل بلدة نابلس ومشاريق الجرّار في عهدة الشيخ محمد قاسم، وبلاد جبل نابلس في عهدة الشيخ محمود عبد الهادي والشيخ يوسف بن قاسم الأحمد والشيخ عبد الله الجرّار والشيخ يوسف والشيخ عبد الوهاب الجيوسي، ثمّ ما لبث أن جعل متسلّمية نابلس للشيخ سليمان عبد الهادي، فسخط شيوخ جبل نابلس ومنهم الشيخ عبد الله الجرّار والشيخ قاسم الأحمد والشيخ عيسى البرقاوي والشيخ ناصر المنصور والشيخ عيسى القدومي، فأعلنوا عصيانهم. وكان إبراهيم باشا قد تلقى أوامر من والده محمد علي باشا بفرض الضرائب واحتكار تجارة الحرير ونزع السلاح وإجراء التجنيد، فأذاع ذلك بمنشور وأوامر أصدرها إلى الحكّام، فاتفقت أسرة طوقان وأسرة الجرّار في نابلس مع أسرة أبي غوش في القدس ويافا على رفض ذلك[3]، ولاسيّما أن إبراهيم باشا أسقط هؤلاء الشيوخ وأحلّ محلّهم آل عبد الهادي، فلمّا علم إبراهيم باشا بذلك أسرع إلى القدس وطلب من أعيان البلاد ضرورة تنفيذ أوامره، فاندلعت الثورة في أنحاء فلسطين، ونشب القتال في نابلس وفي أماكن متفرقة من البلاد، وربط أهالي جبل نابلس في الطريق من أبواب عكا إلى القدس، فاضطر إبراهيم إلى التحصّن في يافا، فلما علم والده محمد علي باشا بذلك أرسل له قوة من (15) ألف جندي، وعلى إثر ذلك قام إبراهيم باشا بالهجوم على شعفاط وبيت جالا

(1) الشيخ عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، حققه محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1963، ج2 ص 951، عزّتلو إسكندر بك أبكاريوس، المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، مطبعة حمص، 1910، ص 27.

(2) سليمان أبو عزّ الدين، إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، 1929، ص 169- 179.

(3) يذكر القس أسعد منصور في كتابه "تاريخ الناصرة" دار الهلال، القاهرة، 1923، ص 71، سبباً آخر للثورة، وهو أن إبراهيم باشا لمّا ذهب إلى نابلس وفي حاشيته حسين عبد الهادي خرج مشايخ النوابلسية لاستقباله يتقدمهم أحمد القاسم الجرّار، وهو شيخ جليل، راكباً على مهر يلاعبه كأنّه شاب، فعدّ إبراهيم باشا ذلك منه خفة فقال موجهاً الكلام إليه: آمل أن يكون أولادكم أكثر أدباً منكم. فاغتاظ أحمد القاسم ولكنه كظم غيظه، ولما وصلوا نابلس أعد دسيسةً لاغتيال إبراهيم باشا، وهي أنه دعاه لزيارة مصبنته فأمر رجاله أن يطرحوه في الزيت الغالي. ولكن حسين عبد الهادي عرف بالدسيسه فحذره.

ولفتة وزيتا ثم هاجم جبل نابلس، وتوجه إلى قرية جبع، معقل آل جرّار، فأمر بحرقها، ففرّ أهلها منها، وهرب الشيخ عبد الله الجرّار والشيخ قاسم الأحمد وعيسى البرقاوي والشيخ ناصر المنصور إلى جبل الخليل ومعهم أولادهم، وقد كان وقع مع الأسرى الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله الجرّار، ثم أطلقه إبراهيم باشا.

ثمّ توجه إبراهيم باشا بالعساكر إلى الخليل وحاصرها واقتحمها، ففرّ الثوار من الخليل إلى السلط ثم الكرك، فتعقبهم إلى الكرك فقاتله أهلها، ولما دخل القلعة بعد حصار وقتال أضرم فيها النار، لكنه لم يجد الثوار. وبعد أن فرّوا من الكرك قام أحد شيوخ القبائل بتسليمهم لإبراهيم باشا خوفاً من سطوته، فقتل الشيخ قاسم الأحمد والشيخ عيسى البرقاوي في دمشق، وقطعت رؤوس أولادهم في عكا والقدس، وأعدم معهم الشيخ مسعود الماضي شيخ مشايخ ساحل حيفا، واسعد بك الخضر متسلم يافة، وقام عماله بتجريد السكان من السلاح فجمعوا من نابلس وحدها (5600) بندقية[1].

واستمر حكم إبراهيم باشا لبلاد الشام حتى سنة 1841م. وذكر كوندر وكيتشنر في كتابهما "المسح العام لغربي فلسطين" أنّ إبراهيم باشا قصف قلعة صانور سنة 1840 ودمّرها[2]. إلاّ أنّ آل جرّار أعادوا إعمار البلدة سنة 1847 وما بعدها وسكنوها كما يرد ذكره في كتب الرحّالة.

صانور وآل جرّار بعد الحكم المصري حتى نهاية القرن التاسع:

إنّ أهم مصدر للمعلومات عن صانور وآل جرّار في هذه الحقبة هو كتب الرحّالة الأجانب الذين زاروا صانور وجبع أو مرّوا بها ووصفوهما مثل رحلة إليزا روجرز وجيمس فنّ وغيرهما، وكذلك بعض المؤلّفات التي كتبت بغير العربية مثل كتاب ألكزاندر شولش "تحوّلات جذرية في فلسطين 1856- 1882" وكتاب بشارة دوماني "إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس 1700- 1900" وغيرهما، بالإضافة إلى تقارير القناصل الأوروبيين في القدس

(1) انظر أخبار هذه الثورة في: سليمان أبو عزّ الدين، إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، 1929، ص 169 – 179، مؤرخ مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، علّق حواشيها الدكتور أسعد رستم، ص 39- 45؛ الدكتور أسد رستم، بشير بن السلطان والعزيز (1804- 1841)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1975، ج2 ص 120- 126، القسّ أسعد منصور، تاريخ الناصرة، دار الهلال، القاهرة، 1923، ص 70- 72، إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة ابن زيدون، دمشق، 1938، 1: 246- 259.

(2) C.R. Conder, H.H. Kitchener, The Survey of Western Palestine, London, 1882, Vol.2, P. 157

ودمشق.

أمّا المصادر العربية التي تناولت هذه الحقبة فإنها متأخرة قليلاً، لكن أهميتها تكمن في اعتمادها على الوثائق التي تعود للعصر العثماني وسجلاّت المحاكم الشرعية ذات الصلة، ومن هذه المصادر كتاب "بلادنا فلسطين" لمصطفى مراد الدبّاغ، وكتاب "العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي" لمحمد عزت دروزة، وكتاب "تاريخ نابلس والبلقاء" لإحسان النمر، وغيرها.

اتّسمت هذه الفترة بصراعات محليّة للاستيلاء على مناطق منفردة أو للسيطرة على جبل نابلس برمّته، كما اتّسمت بالهجمات الثأرية بين الأسر المتنازعة، واستمر أهل نابلس بانقسامهم بين قيس ويمن، أمّا القيسية فكانت تتألف من آل عبد الهادي وقسم من آل جرّار (شمال بلاد حارثة) وآل الجيّوسي وآل القاسم وآل النمر. وتألفت اليمنية من آل طوقان وقسم من آل جرّار (جنوبي بلاد حارثة) وآل ريّان وآل برقاوي.

وهذا يعني أنّ آل جرّار قد انقسموا على أنفسهم في مرحلة من المراحل، فكان بعضهم يحارب مع آل عبد الهادي وبعضهم يحارب مع آل طوقان، لكنّ ذلك استمرّ لفترة قصيرة، ثمّ اتحدوا ضدّ آل عبد الهادي وتحالفوا جميعهم مع آل طوقان.

وقد حاول آل عبد الهادي انتزاع قسم من بلاد حارثة من آل جرّار، وفي سنة 1856 أراد كامل باشا أن يعين من جديد حاكماً على نابلس، وبناءً على نصيحة القنصل الفرنسي قرر أن يعين محمود عبد الهادي في وظيفة قائمقام. واستلم كمال باشا من محمود عبد الهادي 500 كيس (في كل كيس 500 قرش)، ومن يوسف الجرّار (150) كيساً، واستقر يوسف الجرّار في جنين، وكان يوسف هذا من أنصار آل عبد الهادي.

وبعد تعيين محمود عبد الهادي سنة 1856 دعا كامل باشا إلى اجتماع لزعماء نابلس لإعلان ذلك، فتغيب عن الاجتماع زعماء الحزب المعارض المعروف بالحزب الإقطاعي واعتبروا عُصاةً ومنهم أبو خليل جرّار (إبراهيم جرّار) ودرويش طوقان ومحمد برقاوي ومحمد سليمان ريّان.

وكانت صانور في هذه المرحلة من مراحل النزاع في أيدي ذلك القسم من آل جرّار المتحالف مع آل طوقان برئاسة الشيخ إبراهيم الجرّار، حتى إن عدداً من آل طوقان لجأوا إلى القلعة، بينما كان يقود القسم المتحالف مع آل عبد الهادي من العشيرة يوسف جرّار.

ولمّا قام المبشّر البريطاني لايد Lyde بقتل أحد الشحاذّين برصاصة اتخذ الحزب المعارض (طوقان- جرّار (أبو خليل)) من ذلك ذريعة لتعبئة حلفائهم واستنجدوا بالبدو

وهاجموا بعض قرى الحزب المعادي (عبد الهادي) وخرجت ضدّهم قوة بقيادة أحد إخوة حاكم نابلس محمود عبد الهادي، وقتل في المعركة عبد الرحمن جرّار وآخرون، وانسحب (العصاة) بعد ذلك إلى صانور. وكانت النتيجة التي استخلصها كامل باشا أن الهدوء لن يعود إلى البلاد إلاّ إذا أزيح رؤساء آل طوقان وزعماء آل جرّار.

وكان محمد حسين عبد الهادي قبل هذه الأحداث التي وقعت في نابلس قد هاجم قلعة آل جرّار في جبع، ولكنه مني بالهزيمة وبخسائر فادحة.

وفي سنة 1857 وقعت معركة امتدت من جنين إلى ما بعد صانور بين فريق جرّار وطوقان، ومعهم البدو من عجلون وغور الأردن، وفريق عبد الهادي، هزم فيها آل عبد الهادي.

وبعد ذلك انخرطت عشيرة الجرّار في سلك واحد ووقفت متحدة إلى جانب آل طوقان، وذلك بسبب الأعمال المنفرة التي قام بها حزب عبد الهادي في تلك الحرب. و قد أدّى اتحاد آل الجرّار ثانيةً إلى نزع سلطة آل عبد الهادي وإضعافها، وقد أقسم متسلّم جنين قاسم داود الجرّار أمام روجرز بأنه إذا لم يسترد حزب الجرّار طوقان حقوقه "فسيقومون قومة واحدة أخيرة سوف تسجّل في صحائف التاريخ في جميع أنحاء العالم"، وقد بدا للمراقبين الخارجيين أنّ آل الجرّار قد أصبحوا في السنتين التاليتين حتى الأعداء الرئيسيين لآل عبد الهادي، بمعنى أنّهم حلّوا محلّ آل طوقان كممثلين للحزب المعارض.

وفي 2 ايار 1857 عيّن ثريا باشا على القدس بدلاً من كامل باشا، وما إن وطئت قدماه أرض فلسطين في يافا حتى قدّمت له عرائض من آل طوقان وجرّار موجهة ضدّ آل عبد الهادي، فذهب إلى نابلس بنفسه وثبت محمود عبد الهادي في وظيفته، ومنح آل جرّار وظيفة حاكم جنين، وعيّن علي طوقان حاكماً للرملة.

وفي خريف 1858 تجدّدت الاشتباكات الدموية بين آل جرّار وآل عبد الهادي بمشاركة البدو كذلك، فجاءت الأوامر إلى محمود عبد الهادي وقاسم داود الجرّار بالتوجه إلى بيروت حيث ألقي القبضُ عليهما، فقام عبد الفتاح ابن أخي محمود عبد الهادي ومحمد حسين عبد الهادي بتنظيم المقاومة.

وفي نيسان 1857 كانت هناك ويلات تدبّر ضدّ آل عبد الهادي تجسمت في قوة مقاتلة حُشِدَتْ جنوبي عرابة: 400 رجل من المشاة و 200 من الفرسان و 80 من الرماة، ومدفعا ميدان وقوة من الفلاّحين تابعة لحزب طوقان- جرّار. وفي 17 نيسان اقتحمت عرابة، وسقط الأفراد البارزون في عائلة عبد الهادي أو فرّوا أو وقعوا في الأسر. وسقط نحو 200 قتيل من المحاصَرين وزهاء 30 جندياً من العثمانيين. كان آل عبد الهادي على استعداد للاستسلام

من أول مناوشة واتفقوا على ذلك مع قائد القوة العثماني، لكنّ آل جرّار لم يكونوا ليرضوا بذلك، لقد أقسموا على الانتقام لتدمير صانور على يد عبد الله باشا، وهو التدمير الذي جعلوا آل عبد الهادي شركاء في مسؤوليته، لقد أرادوا أن يردوا عرّابة خرائب وأطلالاً.

وبعد هذه المعركة جرى القبض على قاسم وأحمد وإبراهيم جرّار بسبب اشتراكهم في المؤامرة، في حين قام شيخ من حزب آل عبد الهادي بعد بعض الوقت بمهاجمة جبع وغيرها من قرى الجرّار انتقاماً لسقوط عرابة.

لقد كانت هذه المعركة آخر مواجهة عسكرية كبرى بين الإدارة العثمانية والزعماء المحليين في جبل نابلس حين جاءت حامية عثمانية رابطت في نابلس، وتمّ إيواء جنود الجيش النظامي في مختلف قرى جبل نابلس.

يقول إحسان النمر: إنه بانتهاء الحرب الأهلية انتهى أيضاً "عهد الإقطاع والفروسية، وأصبح جبل نابلس يحكم من سراية الحكومة فقط، وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يعد هناك حاكم واحد من أهل البلاد".

إلاّ أنّ معظم عشائر الزعماء المحليين وأفندية المدن استطاعوا أن يبنوا مراكز سياسية إدارية واقتصادية جديدة وأن ينقذوا سلطتهم ونفوذهم في العهد الجديد. كان هذا شأن آل عبد الهادي وجرّار وطوقان والنمر.

في عام 1867 ألحقت السلطات العثمانية القسم الأوسط من عجلون، أي البلقاء، وقاعدتها مدينة السلط، بجبل نابلس، وقد بات جبل نابلس يعرف رسميّاً باسم متصرفية جبل نابلس والبلقاء، إلى أن فصل عنه هذا الجزء الجديد سنة 1888[1].

زعماء آل جرّار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

- الشيخ زبن بن ناصر بن جرّار (هو الذي رحل من البلقاء إلى مرج ابن عامر سنة 1669).
- محمد بن زبن المعرف بالمشرقي (عينته السلطات العثمانية متسلماً على اللجون ومرج ابن عامر).
- الشيخ إبراهيم بن محمد الجرّار الموصوف بأمير النوابلسية (كان متسلماً لسنجقي جنين ونابلس 1723- 1735)، (وكان له من الأبناء محمد وحمدان وأحمد).
- الشيخ محمد بن إبراهيم الجرّار (كان متسلماً لسنجقي جنين ونابلس من 1735

(1) بشارة دوماني، إعادة اكتشاف فلسطين، أهالي جبل نابلس 1700 – 1900، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 1998، ص 61 (ترجمة حسني زينة)، وينظر أيضاً: إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، 1: 295 – 304.

حتى 1771، وكان له من الأبناء خليل ويوسف).

- الشيخ يوسف بن الشيخ محمد الجرّار (سلطان البرّ) كان متسلماً لجنين ونابلس من سنة 1771 حتى وفاته 1808 وتخللتها فتراتٌ قصيرة كان فيها متسلماً لجنين فقط. وكان له من الأبناء: أحمد وعبد الله وداود ومحمد.
- الشيخ داود اليوسف الجرّار (عيّن متسلماً لجنين بعد وفاة والده سنة 1808 وتوفي بعد ثمانية أشهر من وفاة والده. وكان له من الأبناء قاسم واسعيد وخليل).
- الشيخ أحمد آغا اليوسف الجرّار (1809- 1819 متسلماً لجنين، و من 1811- 1816، 1819 متسلماً لجنين ونابلس، ومن أبنائه يوسف ومحمد).
- الشيخ عبد الله آغا اليوسف (أصغر أبناء يوسف الجرّار)، (1820- 1837 متسلماً لجنين، ومن أبنائه الشيخ إبراهيم والشيخ أحمد والشيخ محمد الذي أسره إبراهيم باشا ثم أطلقه).
- الشيخ أحمد آغا بن عبد الله آغا اليوسف الجرّار (زعيم جبع 1840- 1856).
- الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد الله الجرّار (زعيم صانور 1841- 1856) وكان له من الأبناء: أحمد وخليل.
- الشيخ يوسف بن أحمد آغا اليوسف الجرّار (كان متسلماً لجنين سنة 1856).
- الشيخ قاسم بن داود اليوسف الجرّار (كان متسلماً لجنين 1857- 1878، وكان له ابن اسمه نمر لقب بنمر المشاريق).
- الشيخ نمر بن قاسم بن داود اليوسف الجرّار (كان عضواً بمجلس إدارة نابلس).
- الشيخ مفلح بن الشيخ عبد الله اليوسف الجرّار (زعيم صانور 1845- 1863) ومن أبنائه: قدّورة (عبد القادر).
- الشيخ اسعيد الداود اليوسف الجرّار (زعيم جبع من سنة 1830- 1840).
- الشيخ قدّورة (عبد القادر) المفلح بن الشيخ عبد الله اليوسف الجرّار (عيّن أول قائمقام لجنين سنة 1878- 1883)، كما عيّن عضواً في مجلس إدارة متصرفية نابلس حتى وفاته سنة 1898).
- الشيخ عوض بن محمد بن أحمد الشيخ غازي الجرّار (كان شيخ آل جرّار في برقين في أواخر القرن التاسع عشر، وكان جده الشيخ غازي ممن شاركوا في التصدي لحملة نابليون سنة 1799).





الـرّحــلات





(1)

رحلة المكناسي 1785



رحلة المكناسي 1785[1]

يقول في رحلته من عكا إلى نابلس[2]:

ومن الغد سافرنا، فرحنا إلى قلعة سَنُور، وصلناها على سبع ساعات، فأكرم مثوانا صاحبُ القلعة وأحسن نُزُلَنا، وأتى بطعام كثير وفراش متكلّف، ولم يترك شيئاً من الحضريّة في طعامه ولا في شرابه، وهذه القلعة حصينة. وقد وجدنا جماعةً معلّقين عدّتهم ببابها، فلّما دخلنا الباب أخذوا العدّة من أيدي رفقائنا وأصحابنا، لأنّهم لا يتركون أحداً يدخل بالعدّة إلى هذه القلعة، ومن الغد عند خروجنا ردّوا العدّة إلى أصحابنا.

وهذا الرجل صاحب هذه القلعة[3] تحت نظر وزير الشّام مَوْلى عملِ هذه الناحية على يده، لكنّه غير كامل الطاعة والانقياد، فهو يميل إلى الاستقلال والاستبداد، منفّذاً لأوامر أميره، لكنّه لا يتلاقى معه خوفاً على نفسه، والوزير أيضاً لا يقدر على نزعه، فهو قانع بما يأتي منه، فإذا أتى الوزير إلى ناحية بلاده يخرج منها إلى ناحية أخرى حتى يرجع الوزير ويرجع.

وفي عودته من الحجّ مارّاً بالقدس ثم سنجل ثم صانور يقول[4]: "ومن هذه القرية بتنا بقلعة سنور، فأكْرَمَنا أهلُها...".

---

(1) رحلة المكناسي: إحراز المعلّى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرّك بقبر الحبيب 1785، محمد بن عبد الوهاب المكناسي، حققها وقدّم لها محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع/ أبو ظبي والمؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت 2003. وهذه الرحلة هي رحلة سفير مغربي إلى الأستانة ثم الحجّ، وكان معه وفد فيه عبد الملك بن إدريس ابن عمّ سلطان المغرب، وأبو حفص عمر وأبو محمد عبد الكريم بن يحيى.

(2) ص 290- 291.

(3) يقصد الشيخ يوسف الجزّار.

(4) نفسه 319.



(2)
رحلات وليام براون من سنة 1792 إلى 1798 في إفريقيا ومصر وسوريا



رحلات وليام براون من سنة 1792 إلى 1798 [1]:
في إفريقيا ومصر وسوريا

يقول في رحلته من القدس إلى الناصرة في 2/ 3/ 1797[2]:

"وبعد أن اجتزنا جبال نابلس (عيبال وجرزيم) وصلنا إلى سهل فسيح ذي تربة خصبة، وهي في الغالب بعد المطر تكون مغمورة بالمياه، وإلى جانب طرفها الشمالي يجثم حصن صغير عرف عنه أن صدّ أحمد باشا الجزار الذي كان على رأس خمسة آلاف جندي وعدة قطع من المدفعية. وله سبعة أو ثمانية أبراج مستديرة وله بوابتان. إنّ فلاّحي نابلس محاربون ومقاتلون وعموماً يتسلحون جيداً".



(1) William G. Browne, Travels in Africa, Egypt and Syria from the year 1792 to 1798, Longman, London, 1799.

والمؤلف وليام جورج براون مستكشف بريطاني، ولد في لندن سنة 1768، وتوفي في إيران سنة 1813، وفرضت عليه الإقامة الجبرية في دارفور في المدة من 1793 إلى 1796، وقد نشر خبر هذه الحادثة في كتاب رحلته. وفي سنة 1812 قام برحلة من بريطانيا إلى سمرقند حيث اغتاله لصوص سنة 1813.

(2) ص 365.



(3)

رحلة إدوارد دانييل كلارك سنة 1801

رحلات في الأرض المقدّسة



إدوارد دانييل كلارك[1] قام بها سنة 1801[2]:
رحلات في الأرض المقدّسة

يقول في وصف وصوله من جنين إلى صانور في طريقه إلى نابلس[3]:

بدأنا رحلتنا إلى نابلس في الرابعة صباحاً. وفي السابعة وصلنا إلى قلعة صانور[4]، وهي تقع على تلّة، وتشبه إلى حدّ كبير المباني المصمّمة كالقلاع في إنجلترا. إنّها قويّة جداً، وممّا يبعث على التساؤل أنها على عظمة شأنها، لم تذكرها المصادر، حتّى هؤلاء المؤلفين الذين يذكرون تقريباً كلّ قرية في الأرض المقدّسة. إنّ علينا أن نعتبر هذا الموقع هو موقع نابلس (Samaria) القديمة، وليس كما ذكره موندريل (Maundrell) (Journey from Aleppo to Jerusalem, pp. 59, 111, Oxford 1721.)، وآخرون بأنها سبسطية التي ما زالت تحمل اسماً يتعلّق بتلك المدينة.

ويذكر كواريسميوس (Quaresmius) أن مدينة سبسطية هي نابلس القديمة (Sabaste Sivo Samaria). (Elucid, Terr. Sanc.Tom 11, p. 810, Anteverp. 1639) لأنها تقع في الطريق من نابلس (Sichar) إلى جنين. لكننا ومن خلال قيامنا بهذه الرحلة فإننا لم نجد أي مكان في هذه الطريق سوى صانور، والتي تقع على تلّة، تبعاً للوصف الذي تم إعطاؤه لنابلس القديمة، والذي يحدّده دانفيل (Danville) في منتصف الطريق بين جنين ونابلس (أو شيخيم Sichem).

وحتى لا ندخل في مزيد من البحث الجغرافي في هذا الموضوع ونعقّد الأمر، فإننا نترك هذا الأمر للرحالة في المستقبل ليتبينوا الموقع الحقيقي للمدينة التي أطلق عليها كواريسميوس (Sebaste) وأطلق عليها موندريل سباستا (Sebasta)، ولإلقاء الضوء على قصة صانور.

إنّ التلة التي تقع عليها قلعة صانور تقع في الجهة الجنوبية من أحد الأودية تحدّها تلالٌ أخرى من سائر الجهات لتبلغ في عرضها إلى ميلين وفي طولها إلى خمسة أميال.

---

(1) Edward Daniel Clarke, Travels in the Holy Land,, Philadelphia, 1817، وهو رحّالة بريطاني، وقد عمل كلارك أستاذاً في علم المعادن في جامعة كمبردج، ونشر رحلاته ومغامراته في أحد عشر مجلداً ضخمة، وهو الذي نقل حجر روزيتا إلى المتحف البريطاني، وهو حجر رشيد اكتشف في مصر عام 1799 ويحمل رموزاً متوازية باليونانية والهيروغليفية المصرية ممّا ساعد على حلّ رموز هذه الأخيرة.

(2) بدأ كلارك رحلته من جزيرة قبرص في شهر أيار 1801، وقد توجه من طبريا إلى نابلس في الساعة السادسة من صباح يوم الاثنين السادس من تموز (ص111).

(3) رحلات كلارك ص 129- 130.

(4) في الأصل Santorri.

وقد صمد هذا الحصن في وجه الجزّار عندما كـان والياً عـلى دمـشق، وقـد أرغـم الجزار على رفع الحصار بعد شهرين.

وعندما صعدنا إلى القلعة حصلنا على الإذن بدخول البوابة، التي تقع إلى جانب ممرّ ذي عقود ومظلم تماماً بسبب طوله المتعرّج كثير الانعطافات. ومن المؤكد أنّ هذه القلعة كانت في أيام الحروب الصليبية منيعة مع أنّه لا توجد أيّة رواية عن ذلك من أي مؤلف، ومن المؤكّد أن إنشاء هذه القلعة لم يكن متأخّراً عن زمن الحروب الصليبية.

استقبلنا الحاكمُ[1] في حجرة ضخمة ذات عقود تشبه ما نطلق عليه في بعض قلاعنـا النورمانية القديمة "The Keep" وهي تشبهها إلى حدٍّ كبير، ما لم نعتبر أنّ جـزءاً مـن هذه القلعة أضافه النورمان خلال الحـروب الـصليبية وأنّ مـن الممكـن أن يكونـوا قـد تأثروا فيه بمبانيهم القديمة.

وقد شاهدت في الحجـرة عـدداً مـن الأسـلحة كالبنـادق والمـسدّسات والـسيوف والخناجر معلقة على الجدران، وإلى جانب ذلـك هنـاك سروج وركـاب مطليّـة وكـسوة فاخرة تعود كلّها لسيّد القلعة (Lord of Citadel).

وعلى أرض الحجرة يربض كلبه السلوقيّ بينـما يقـف مـدرّبو صـقوره ينتظـرون في الباحة مقابل باب الحجرة، ممّا يجعل كلّ شيء في ذلك المكان يـذكّر بالعـصور القديمـة، وكأنّ مشهد العصور السالفة قد تحقّق أمام أعيننا.

أمّا شخصية الحاكم فإنها لم تكن الجزء الأقلّ إثارةً للاهتمام في هذه الصورة الحيّة، إنّ لديه لحية حمراء طويلة[2]، ويرتدي ملابس تتميز بالمهابة والفخامة العسكرية ممّا يستحيل تخيُّله.

لقد استقبلنا (الحاكمُ) بحسن الضيافة المعهودة من أهل بلده، وصَرَفَ المرافق الذي صحبنا من عكا، وبدا فخوراً بأنّ يجعلنا تحت حماية جنوده المميزين؛ وسمح لنا بحـارس خاصّ عيّنه لنا من قواته الخاصّة ليضمن سلامتنا حتى مدينة نابلس.

لقد جرى بيننا وبينه بعض الحوار حول الحالـة المـضطربة في الـبلاد ولاسيّما في منطقـة الجليل، وقال بأنّ الثوّار العرب موجودون بأعداد كبيرة وأنهم منتشرون على الـتلال بـالقرب من مرج ابن عامر، تدفعهم، في هذا المحور الصعب، الرغبة الملحّة بالأخـذ بالثـأر، واليـأس بسبب الخسائر التي تكبّدوها نتيجة الاعتداءات التي قـام بهـا جـيش الجـزّار، ونـصحنا بـأن نتجنب التعامل مع أي فضوليّ يحاول أن يتحدث إلينا خلال رحلتنا إلى القدس.

---

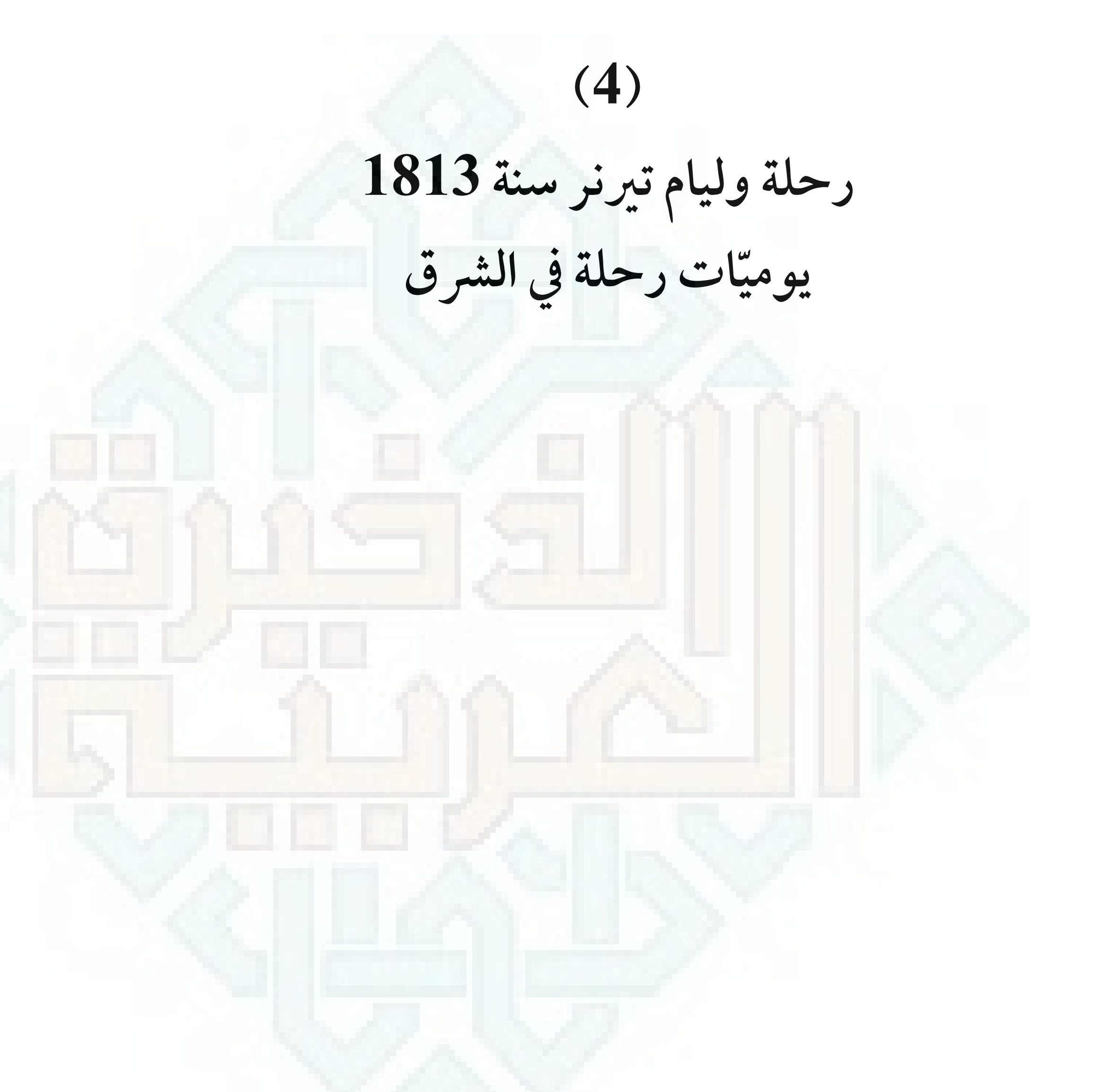
(1) كان زعيم صانور في ذلك الزمن الشيخ يوسف بن الشيخ محمد الجرّار.

(2) ورد في كتاب حسن الشهير بابن الصدّيق: غرائب البدائع، ص68 أنّ الشيخ حمدان الجـرّار، وهـو شـقيق الـشيخ محمد بن إبراهيم الجرّار زعيم صانور، كانت له ذقنٌ طويلة.

(4)

رحلة وليام تيرنر سنة 1813

يوميّات رحلة في الشرق





رحلة وليام تيرنر سنة 1813:
يوميّات رحلة في الشرق[1]

يصف توجّهه من الناصرة إلى نابلس مروراً بصانور فيقول عن يوم الخميس (20/ 4) وذلك في أثناء وجوده في الناصرة[2]:

"في المساء زرت السيّد كاتافاغا[3]، حيث التقيت في منزله حاكم صانور، وهو من رعايا تركيّا، وقد أكّد لي بأنه إذا ما اتخذنا الاحتياطات المناسبة، فإنّ الطريق من الناصرة إلى القدس عبر نابلس هي آمنةٌ الآن، رغم أنه رجاني أنه في حال حدوث أي شيء لي فإنّ عليّ ألاّ أذكر أنّه هو الذي نصحني بسلوك هذه الطريق. وبناءً على ذلك استأجرت في المساء، وبمائة قرش، فرساً وثلاثة بغال ورجلاً مسيحياً مسلّحاً[4] من أبناء البلد لمرافقتي. أمّا صانور فإنها قرية تقع بين الناصرة ونابلس. وتقدّر مدة الرحلة عن طريق نابلس بثلاثة أيام".

وعن يوم السبت (22/ 4) يقول واصفاً وصوله إلى صانور بعد مروره بقباطية ووقوعه عن فرسة[5]:

"ثمّ أكملت الطريق ماشياً إلى صانور، حيث وصلناها في الساعة الرابعة مساءً عبر طريق جبليّ متعرّج، وحيث الأرض من حولنا مزروعة قليلاً. وتقع القرية على جبل كان يمكن أن يبدو عالياً لو لم تحط به جبال أخرى أكثر ضخامة.

ولهذه القرية بوّابة رسميّة رئيسية واحدة وعدة بوّابات أخرى أصغر منها موزّعة ومفتوحة على محيط الأسوار. وفي حال دخولنا (حيث كنت راكباً على فرس جورج لأنّ الناس في الشرق لا يحترمون الرحّالة الذين يأتون مشياً) حتى تمّ اصطحابي إلى فِناء بيت الآغا[6] الذي وجدته جالساً يدخّن تحت معرّش عنب وتحيط به خيولٌ وخدمٌ وكلابٌ استطعت أن أميّز من بينها كلب صيد إنجليزياً.

وقد استقبلني الآغا بشكل حضاريّ فائق، وسألني أسئلة عديدة عن نابليون بونابرت، الذي سُرَّ هؤلاء الناس كثيراً لعودته إلى فرنسا، لكون ذلك يضمن الأمن في تركيا.

---

(1) William Turner: Journal of a Tour in the Levant, 2Vols., John Murray, London, 1820

(2) ج 2، ص 149.

(3) هو خوري الناصرة وكانت تربطه بالشيخ أحمد آغا الجرّار متسلّم نابلس وجنين علاقة صداقة، حسبما يظهر من خلال نصوص بعض هذه الرحلات.

(4) اسمه جورج وسيرد ذكره في ما بعد.

(5) نفسه 2: 152 – 154.

(6) يقصد الشيخ أحمد آغا بين الشيخ يوسف الجرّار.

لقد جلست أدخّن وأتحدّث مع الآغا واثنين آخرين من العرب، وكان جورج يترجم بيني وبينهم، وبقينا على تلك الحال حتى غروب الشمس. وحيث أنّ البيت الذي كنّا فيه كان صغيراً جداً فإنّ معظم أهله كانوا ينامون على كراسيّ من الحجر في فِناء البيت، وقد اختار لي غرفةً مقبولة نوعاً ما يستعملها خدمه من الطبقة الرفيعة، وقد تجمعوا حولي بحماسة بالغة لكي ينظروا إلى المسدسات وإلى الساعة التي بحوزتي وغير ذلك، وحتى أتخلص من ذلك الموقف فقد خرجت أتجوّل داخل القرية، لكني وجدت الأمر أسوأ وذلك لأنني سرعان ما وجدت سكان القرية كلّهم يتبعونني، وهم –وإن كانوا كلّهم من العرب وفضوليّين– فإنّ أحداً منهم لم يتعرّض لي بأيّ إهانة أو مضايقة.

وقد ظهر لي أن القرية تحتوي على نحو مائتي منزل، معظمها بيوت طينية بائسة بارتفاع خمسة إلى ستة أقدام، وتنتهي هذه البيوت عند نقطة معينة في قمة الجبل.

وتقع صانور إلى الجنوب الغربي من الناصرة وتشرف على منظر بديع لوادٍ خصيب أسفل منها يفلح بشكل جيّد ويزرع بالذرة.

إنّ المسيحيّ الوحيد في هذه القرية هو سكرتير الآغا.

وعند عودتي من جولتي داخل القرية قُدِّم لنا العشاء بمعيّة الطبقة الرفيعة من خدّام الآغا ومديري أعماله وسائسي الدوابّ الذين كانوا معي، وقد رأيت بأنّ من الأفضل لي أن أدع كبريائي جانباً وأن أتناول الطعام مع هؤلاء الأشخاص، وأن لا آخذ بالشكوى والتذمّر، حتى لا يظنوني من الأثرياء، فأصبح عرضة للخطر.

ولذلك فإنني أخذت في الأكل معهم بكلّ شهيّة، من طبق كبير من الأرز المتبل واللحم قطره نحو ثلاثة أقدام، وإلى جانب هذا الطعام كان يوجد أيضاً محاشي مختلفة وورق دوالي (طبق من الأرز مخلوط بالمحاشي ومحشو بورق العنب) ولبن.

وكان يجلس إلى جانبي خادمٌ أسود، كان لون يده السوداء مغايراً للون الأرز الأبيض الذي في الطبق، حيث كان يغمس يديه في قلب طبق الأرز ثمّ يجعل من الأرز كرة قبل أن يدفعها داخل فمه على ما جرت به عادتهم................[1]

لقد كان الآغا رجلاً سميناً ذا وجه أحمر، وعمره نحو خمسين عاماً. وقد أخبرني أن الطريق إلى نابلس محفوفة بالخطر ولكنه سوف يرسل معي رجلاً مسلّحاً يرافقني إلى نابلس[2].

---

(1) ويواصل تيرنر حديثه عن هذا المشهد معبّراً عن استيائه من ذلك.

(2) ثم يتحدث عن مبيته في تلك الليلة في ذلك المنزل في صانور، وأنه لم ينم سوى ساعتين فقط. وقد بدا وليليام تيرنر في سرده لوقائع رحلته بين العرب والأتراك شديد التعصب والعنصرية والابتعاد عن الموضوعية والدقّة.

(5)

رحلة الملكة كارولاين ملكة بريطانيا سنة 1814

رحلات وأسفار صاحبة الجلالة كارولاين ملكة بريطانيا العظمى

تأليف أحد أفراد حاشيتها



رحلة الملكة كارولاين ملكة بريطانيا سنة 1814:
رحلات وأسفار صاحبة الجلالة كارولاين ملكة بريطانيا العظمى،
تأليف أحد أفراد حاشيتها [1]

يقول المؤلف في وصف رحلة الملكة –التي أصبحت في ما بعد أميرة ويلز– من الناصرة والجليل إلى القدس مروراً بصانور ونابلس[2]:

وفي الساعة السادسة وصلنا إلى قرية صغيرة حيث قضينا تلك الليلة، وقد أعطاها غروب الشمس مظهراً جميلاً في الوقت الذي أوشكنا فيه على الوصول إلى ذلك المكان. وهنا لاحظنا مرّة أخرى شجر الصبّار يستخدم سياجاً للبساتين وينمو بأحجام هائلة، بحيث يبلغ ساق النبتة الواحدة منها أضخم من جسم الرجل، وأخشابها ليفيّة لا تصلح لأيّ استعمال آخر غير الوقود، والجراح التي تسببها أشواكها الدقيقة غير المرئية للأشخاص الذين يغامرون بالاقتراب منها شديدة الإزعاج ولاسيّما في هذا الطقس. وهي كذلك خطرة على الأوروبيين. إنّ زهراتها البديعة الألوان تجعلها ذات منظر رائع في وسط أسلحتها التي تحفّ بها.

إنّ التلّة التي تقع عليها القلعة[3] تقف فوق الجانب الجنوبي للوادي[4]، وتحدّها تلال أخرى من كلّ جانب، وتبلغ نحو ميلين عرضاً في خمسة أميال طولاً. وقد صمد هذا الحصن

---

(1) Voyages and Travels of Her Majesty Caroline Queen of Great Britain, by One of Her Majesty's Suite, Jones and Co., London, 1821، وبدأت رحلتها من لندن في التاسع من آب سنة 1814م. وكان من حاشيتها الليدي تشارلوتي ليندزي (Lady Charlotte Lindsay) والليدي إليزابيث فوربس (Lady Elizabeth Forbes) والكولونيل ليجر (Leger) والسير ويليام جيل (Sir William Gell) وآخرون. وقد عاشت الملكة كارولاين بين سنتي 1768 و 1821، وتعرّضت في حياتها لمشكلات عديدة. ونزع عنها لقب (ملكة).

(2) ص 624– 626، ويلاحظ وجود تشابه كبير بين وصف صانور في هذه الرحلة ووصفها في رحلة إدوارد دانييل كلارك السابقة الذكر التي قام بها سنة 1801م، أي قبل رحلة الملكة بثلاث عشرة سنة، وقد يكون ذلك دليلاً على أنّ أحد أفراد الحاشية الذي دوّن رحلة الملكة ربما يكون كلارك نفسه، وأنه اعتمد في بعض ما دوّنه في هذه الرحلات على ما سبق له وصفه في رحلته القديمة. ومع ذلك فإنّه توجد اختلافات طفيفة بين الرحلتين. فرحلة كلارك كانت من طبريا إلى صانور، بينما رحلة الملكة فكانت من الناصرة والجليل إلى صانور، وكان الوصول إلى صانور في رحلة كلارك السابعة مساءً، أمّا الوصول إلى صانور في رحلة الملكة فكان السادسة مساءً، وبينما ذكر كلارك اسم قلعة صانور فإنّ رحلة الملكة وصفت البلدة والقلعة دون أن تذكر اسمها، كما أنّ كلارك بحث علاقة صانور بالسامرة، ولم تبحث رحلة الملكة ذلك.

(3) في كلارك: قلعة صانور، ومن هنا يبدأ التطابق مع رحلة كلارك.

(4) في كلارك: لأحد الأودية.

في وجه الجزار عندما كان والياً على دمشق، وأرغمه على رفع الحصار بعد شهرين.

وعندما صعدنا إلى القلعة حصلنا على الإذن بالدخول عبر بوابتها، تحت ممرّ ذي عقود ومظلم تماماً بسبب طوله الضارّ ومنعطفاته الكثيرة.

ومن المؤكّد أنّ هذه القلعة كانت في أيام الحروب الصليبية منيعة، مع أنه لا يوجد أي رواية عن ذلك لدى أي مؤلّف، ومن المؤكد أيضاً أنّ إنشاءها لم يتأخّر عن زمن الحروب المقدّسة[1]. وقد استقبلنا حاكم القلعة في حجرة ضخمة تشبه ما نطلق عليه في بعض قلاعنا النورمانية القديمة"The Keep" التي تشبهها إلى حدّ كبير، هذا إذا اعتبرنا أنّ جزءاً من هذه القلعة قد أنشأه النورمان خلال تلك الحروب (الحروب الصليبية)، وأن من الممكن أن يكونوا قد حاكوا فيه مبانيهم الأصلية. وقد كان هناك عددٌ من الأسلحة كالبنادق والمسدّسات والسيوف والخناجر معلّقة على الجدران، وإلى جانب ذلك كانت هناك سروج وركاب مطليّة وأثاث وكسوة فاخرة تعود كلّها لسيّد القلعة (Lord of Citadel).

وعلى أرض الحجرة كان يربض كلبه السلوقيّ بينما كان مدرّبو صقوره ينتظرون في الباحة مقابل باب الحجرة، وكان كلّ شيء يساعد على استعادة أفكار الأزمنة الغابرة، وبدت مشاهد العصور القديمة ماثلة أمام عيوننا.

أما شخص الحاكم نفسه فلم يكن أقلّ الأجزاء إثارةً في هذه الصورة الحيّة. فقد كانت له لحية حمراء طويلة وكان يرتدي ملابس تتميز بالأبهة الإقطاعية والفخامة العسكرية، ممّا يستحيل تخيّله.

لقد استقبلنا (الحاكم) بحسن الضيافة المعهودة من أهل بلده، وصَرَفَ المُرافق الذي صحبنا من عكا، وبدا فخوراً بأن نكون تحت حماية عساكره المتميّزين، كما سمح لنا بحارس خاصّ اختاره لنا من قواته الخاصّة ليضمن سلامة وصولنا إلى نابلس.

وقد جرى بيننا وبينه بعض الحوار حول الوضع المضطرب في البلاد، وخاصة في منطقة الجليل، وقال بأنّ الثوّار العرب يوجدون بأعداد كبيرة على التلال بالقرب من مرج ابن عامر، وأنهم في هذه اللحظات الحاسمة مدفوعون بدوافع الرغبة العارمة والملحّة للأخذ بالثأر، وذلك بسبب الخسائر التي تكبّدوها في أعقاب الاعتداءات التي شنّها جيش الجزار. وقال لنا بأنه يرى أن علينا تجنب الاستجابة لأي إزعاجات تصادفنا في طريقنا إلى القدس.

(1) يقصد الحروب الصليبية.

(6)

رحلات جيمس سلك بكنغهام

في فلسطين 1816



رحلات جيمس سلك بكنغهام[1] في فلسطين 1816[2]

يقول عن بدء رحلته إلى نابلس في 15 شباط 1816[3]:

"إنّ الطريق إلى نابلس كان يعتقد أنها بالغة الوعورة، حيث لا يحاول سلوكها بدون قافلة إلاّ عددٌ قليل، وبعد جهد بالغ استطعنا أن نجد رجلاً من سكان تلك البلدة كان يقيم في هذا المكان ليرافقنا مقابل خمسة عشر قرشاً وأن يحمل لنا رسالة من السيّد كاتافاغو (Mr. Catafago) رسالةً إلى صديقه الحاج أحمد جرّار زعيم صانور، وعلى ذلك غادرنا الناصرة حوالي الساعة العاشرة في طريقنا إلى وجهتنا".

ويصف طريقه من جنين إلى قباطية وصولاً إلى صانور قائلاً[4]:

"وفي نحو الساعة العاشرة (مساءً) وصلنا إلى أسفل التلّ شديد الانحدار الذي بنيت عليه بلدة صانور المحاطة بالأسوار، ثمّ ترجّلنا عن خيولنا ومشينا صعوداً حتى وصلنا إلى البوابة، وطلبنا إذناً بالدخول لسائح إنجليزي في طريقه إلى نابلس ومعه رسالة من رئيس الدير في الناصرة، وأنّه يلتمس الحماية لدى الحاج أحمد جرّار[5] زعيم المكان. وقد أُبْلِغَتْ رسالتنا في الحال إلى ذلك الحاج المبجّل، وخلال دقائق كانت البوابات تفتح لنا، وتم استقبالنا بترحاب بوصفنا غرباء بل أكثر من ذلك كأصدقاء.

ولدى اصطحابنا إلى الزعيم وجدناه يجلس على مقعد حجري في ساحة منزله يحيط به ثلّة من رجاله الذين بدا عليهم أنهم فخورون بنيلهم شرف الجلوس على عتبات الملوك تماماً مثل الزعماء الروحيين القدماء.

ولدى دخولنا وقف الجميع لاستقبالنا، وفُرش لنا بِساط، ووضعت لي وسائد على يمين الزعيم، كما قدّم العلف لخيولنا، وتمّ إعداد العشاء لنا، وقدّمت لنا جميع أشكال الضيافة والعناية.

---

(1) رحالة بريطاني، عاش بين سنتي 1786و 1855، ولد في بريطانيا، وعمل في التجارة، وتعلّم العربية، وفي الفترة من 1832 إلى 1837 كان عضو مجلس النواب عن شيفيلد، ألف كتابين عن رحلاته. بدأ رحلته من ميناء الإسكندرية في 25 كانون الأول سنة 1815 إلى سوريا ومنها إلى صور ثم عكا ثم إلى الناصرة. وقد توجه عبر مرج ابن عامر إلى جنين ثم صانور في 15 شباط 1816.

(2) James Silk Buckingham, Travels in Palestine Through the Countries of Bashan and Gilead East of the River Jordan, 2 Vols. London, Longman, 1822.

(3) 2: 378، وانظر كتاب: رحلات في الأردن وفلسطين، سليمان موسى (المجموعة الثانية) ص 38، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمّان، 1987.

(4) 2: 385– 388، وكتاب رحلات في الأردن وفلسطين ص 39– 41.

(5) هو الحاج أحمد آغا ابن الشيخ يوسف الجرّار.

وفي غمرة حوارنا مع هذا الرجل الجديد بالإجلال والاحترام على ما يبدو، فقد نسيت تماماً أن أسلّم إليه الرسالة التي أحملها إليه إلى أن أنهينا طعام العشاء وقدّم لي نارجيلته الخاصّة.

وما أن تلقّى الرسالة حتى أرسل في الحال في طلب أحد المتعلمين الشباب، فقام بقراءة محتوى الرسالة بصوت مرتفع، فأصغى الجميع وأعربوا عن سرورهم بها لأنها كانت حافلة بعبارات المديح الفائق. وقد كان من دواعي سروري على أية حال، أنّ هذا المُضيف الجواد أبدى كلّ ما أبداه من حسن الاستقبال وكريم الفعال البالغة أقصى الحدود قبل أن يطّلع على فحوى الرسالة التي تصفني ورفاقي بالحكمة والموهبة والشرف والثراء، فهذه الأوصاف لن تجعل هذا المضيف الكريم يقدّم لنا أكثر ممّا قدّم.

وقد تركز حوارنا في ذلك المساء على الأوضاع في أوروبا ولا سيّما تلك البلدان التي زرتُها وتلك التي أودّ أن أزورها.

ولّما كان الزعيم نفسه قد زار مكّة مرّتين انطلاقاً من دمشق فقد تعرّفت منه على بعض الأمور الدقيقة في تلك الطريق، وتحدثنا كثيراً عن بعض تلك الأماكن في الجزيرة العربيّة التي رآها كلانا، وخاصّة موانئ الحجاز.

وقد هيء لي -بعد ذلك- فراشٌ فاخر في غرفة منفردة مع أغطية نظيفة ووسائد مغطّاة بالحرير، كما اتّخذت جميع الترتيبات اللازمة من كلّ ما يتمنّاه المرء لراحتي.

وكان من بين الحضور المجتمعين حول النار في الساحة (لأنّ ذلك المساء كان بارداً وقارصاً) رجلٌ كبير السنّ هاوٍ للبنادق والمسدّسات يدعى الشيخ إبراهيم، وقد سألني ألف سؤال عن أسماء الصانعين المشهورين في مختلف عواصم أوروبا، وقد أحضر لي على الأقلّ عشرين قطعة مختلفة كي أفحصها له. لقد كان شغفه بالسلاح شديداً إلى درجة أنّه ربّى ابنه ليكون حدّاد أسلحة، لكنّه هو نفسه كان قد علّم نفسه بنفسه، وكان من بين عدد السلاح الناري التي أراني إياها وهي من صناعة ابنه وهي تقليد لقطع إنجليزية عليها اسم ويلسون، كان هناك عدة قطع ممّا لا تُشين أيّ فنان أوروبي.

وعندما تحدّثنا عن دقة العمل التي بلغتها هذه الصناعة في إنجلترا والوسائل المتطوّرة التي تستعمل في الصناعات المعدنية هناك، حيث كنت أنا بنفسي مطّلعاً إلى حدّ ما عليها، أقسم هذا العجوز على ذقنه بأنني لو أخذته إلى تلك البلاد لأشهر قليلة فقط ليشاهد تلك العجائب -كما سمّاها- فإنه سوف يخدمني في أقصى طاقة الخادم، أو كجندي أو سائس خيل أو أي شيء آخر، فور طلبي ذلك منه وطوال مدّة الطريق.

وواصلنا السهر حتى بعد منتصف الليل، مع فترات صمت قليلة، وكان كلّ شيء رأيته من ذلك الزعيم الحاجّ المبجّل خلال ذلك الوقت قد رسّخ لدي الاعتقاد بأنّ هذا الرجل خيرّ وطيّب القلب وحليم أكثر من أي شخصٍ شاهدته بين الأتراك والعرب على السواء. وزيادة في إكرامه لنا وتفضله علينا فقد أصرّ على أن يرسل معنا من فرسانه الخاصّين من يصحبنا إلى نابلس، وذلك لضمان سلامتنا وأمننا على الطريق التي وصفها بأنها لا يمكن سلوكها من غير حماية من هذا النوع.

وقد أمر لنا بذلك، ثم ودّعنا ذلك الرجل العجوز المتميز، حيث كنّا قد عزمنا على المغادرة عند شروق الشمس، وكان علينا أن نستريح قليلاً لننهض مبكّرين.

وفي السابع عشر من شباط استيقظنا مبكرين مع الفجر وقدّم لنا مضيفونا قهوة الصباح وزاداً لنا خلال الطريق، وبعد أن غادرنا البلدة وسرنا جنوباً في وادٍ ضيّق وصلنا في الساعة الثامنة إلى قرية كبيرة تدعى جبع، وهي تقع على تلة محاطة بالأودية ومليئة بأشجار الزيتون".

× × ×

ولدى وصوله إلى نابلس علم بكنغهام أنّ القافلة المتجهة إلى دمشق قد غادرت قبل ثلاثة أيام، فيتابع قائلاً[1]:

"فأصرّ الفارس الذي أرسله معي الحاج أحمد جرّار، بما أنّ القافلة قد غادرت وأننا أصبحنا غرباء تماماً في هذا المكان، أصرّ بأنّه لن يفارقني حتى اتخاذ بعض الترتيبات للمتابعة، واقترح أن أعود معه لصانور حيث سيوصلني هناك بأمان. وتمّ الاتفاق على ذلك كونه الخيار الوحيد المتبقي".

ثمّ يصف العودة إلى صانور قائلاً[2]:

"سمعنا أذان العصر عند دخولنا نابلس ثانيةً، ولكن لعدم وجود مجال لإضاعة الوقت، فقد بدأنا رحلة العودة إلى صانور. خرجنا من البوابة الشمالية لنابلس وصعدنا تلة هناك كي نسلك طريقاً أقصر، وهناك شاهدنا منظراً عاماً للمدينة وللوادي الذي تقوم فيه. ولم يكن هناك شيء أكثر إثارة من هذا المنظر، تلال عيبال وجرزيم الشاهقة تقترب من بعضها بعضاً، والوادي الخصب الجميل على سفوحها المغطّى بأخشاب الزيتون والمساكن المدهونة باللون الأبيض والمآذن العالية التي تحفل بها المدينة مقابل تلك المشاهد، مؤلّفة معاً صورة أخّاذة.

---

(1) 2: 3، 4، رحلات في الأردن وفلسطين ص 41.

(2) 466- 471، رحلات في الأردن وفلسطين، ص43- 45.

وعندما بعدت المدينة عن مرأى عيوننا فإنّ بقية رحلتنا أصبحت في طريق وعـرة وتـلالٍ جرداء أمضيناها بين صعودٍ ونزول، وهي في مجملها طريق لم يطأها أحدٌ من قبل ولم يـسكنها أحد حتى ولا أي أثر للحياة فيها، حتى وصلنا إلى قرية جبع القريبة من صانور، عند غيـاب الشمس، وأخذنا نحثُّ خيولنا بالهمز خلال بقية الطريق إلى صانور على أرضٍ مستوية. وقد وصلنا وقت تناول العشاء الذي جرى تأخيره من قبل مضيفنا اللطيـف خصيـصاً إلى حـين وصولنا، منذ اللحظة الذي وصله فيها نبأ مشاهدتنا من بوابات القلعة متجهين نحو الحصن بسرعة شديدة عبر الوادي.

لا شيء يفوق حجم الحفاوة التي استقبلنا بها لدى عودتنا، فقد أبـدى الـزعيم ورجالـه سعادة ممزوجة بالإخلاص والحـرارة. وقـد تناولنـا العـشاء معاً بأطبـاق متنوعـة وفـاخرة، وعندما أنهينا العشاء أخذ بقية الحضور دورهم في الطعام كما هي العادة عندهم.

وقد كان حوارنا مهمّاً مثل الحوار الذي دار في الليلة الماضية، ولكنّ من أكثـر مـا نـدمت عليه -كما فعلت ألف مرّة من قبل- استحالة تذكّر جميع الملاحظات الجديدة الشيّقة التي تمـرّ خلال هذا النوع من اللقاءات والاجتماعات.

وعندما أعربت في ذلك الحوار عن خيبة أملي من عدم اللحـاق بالقافلـة المتجهـة شـمالاً أخذ الحاج أحمد يلحّ عليّ بأسلوبه اللطيف جداً أن أبقى في ضيافته حتى الشهر القـادم حتـى موعد مغادرة القافلة المتجهة من نابلس إلى دمشق مرّة أخرى، مؤكّداً لي في الوقت نفـسه أنـه سيبذل قصارى جهده في سبيل توفير الراحة لي.

وقد أعربت له عن امتناني الشديد لهذا الكرم البالغ، وأخبرتـه أنّ مـا أفكـر فيـه في هـذه اللحظة هو أنني أتمنى أن أجـد أي وسـيلة لـردّ هـذا الجميـل، فلـما أجـابني بأنـه إلى جانـب استمتاعه بعمل الخير ومؤانسة الغريب البعيد عن ديـاره ووطنـه وأصـدقائه، فـإني أجـد أنّ الحقائق المشوّقة في معرفتي بالشعوب الأخرى والبلدان الأخرى التي أصبحت عـلى اطّـلاع بها تجعل حواري معهم مهمّاً ويدفعني إلى أن أكون مقبولاً وضيفاً مرحباً به.

وإذا ما تبعت رغبتي فإنني أتمنى لو أبقى هنا لعدة أيام أخرى على الأقـل، لكـنّ واجبـي يدعوني إلى القيام بمهامّ وجهود جديدة، ولذلك صـممت عـلى العـودة إلى النـاصرة للقيـام بأبحاث جديدة.

ولما أُعلم المضيف بهذا التصميم، بذل كلّ ما يستطيع كي يثنيني عن ذلك، وكـان ذلـك موضوع حوارنا الطويل ليلة الرحيل، ثم أويت إلى النوم في الفراش الفاخر الـذي نمـت بـه الليلة السابقة، وقـد أعـدّ ذلـك الفـراش بـإشراف خـازن دار الـزعيم أو خـازن مجوهراتـه

شخصياً.

لقد اقتضى الذوق أن لا أتوجّه بأي أسئلة مباشرة عن قلعة صانور، وبما أنني لم أجد أي فرصة لمشاهدتها إلاّ من الخارج ماعدا الجزء الصغير الذي مررت من خلاله في رحلتنا من بوابة القلعة إلى البيت، فإنني عرفت قليلاً عنها أكثر من الخطوط العريضة. إنها بلدة مسوّرة، تقع على تلّة، ذات انحدار من جميع الجهات، وتُطلّ على منظر وادٍ عريض جميل أو مرجٍ ممتدٍّ شمالاً، ومرجٍ أضيق قليلاً في الجهة الجنوبية، وكلاهما خصب.

وقد بنيت أسوار صانور بناءً متيناً، وهي في الغالب عربيّة المنشأ والمعمار. وللقلعة بوابتان ومدخلان في حيّين متقابلين، غير أن المساحة الكلية للأسوار أقل من نصف ميل. إنّ البيوت بداخل البلدة مزدحمة لكنها مبنية بناء قويّاً، وطرقها ضيّقة، وعدد سكانها ضخم قياساً بحجم المكان، وجميع سكانها مسلمون.

يتبع الحاج أحمد جرّار زعيم صانور لدمشق، ولكنه يتمتع بسلطة مطلقة في مناطق حكمه، حيث لا توجد أي قوات عسكرية حكومية ولا مندوبون للحكومة في مناطق نفوذه.

إنّ حكمه إقطاعي بالكامل، وتتبع له عدة قرى وبلدات أخرى بالإضافة إلى أراضٍ واسعة ممتدة حول هذه القرى والبلدات تتبع لنفوذه وسلطته وإرادته.

وعلى الرغم من سلطته المطلقة إلاّ أن استخدامه لها كان ودّيّاً، وكان يحكم باللين والرفق ممّا جعل رعاياه يبدون الابتهاج بما يمنحه لهم من الرفعة والامتيازات وأسباب السعادة.

وحسبما شاهدته بنفسي فإنّ كل شيء تحت حكم هذا الرجل الأبويّ المعتدل قد لبس لباس العدل والأمن والرخاء والعافية والرضا، وأسّس لصورة رائعة من صور التغاير البنّاء الذي يمكن مشاهدته في بلدان العرب والأتراك.

وفي 18 شباط غادرنا إلى الناصرة في رحلة لا تزيد عن يوم واحد، ولكنّ الحاج أحمد جرّار لم يدعنا نغادر قبل أن نتناول طعام الإفطار الذي كان أمر بإعداده لنا في الليلة الماضية، وقد شاركنا فيه أيضاً.

وعند بدء الرحلة قال بأنه يتمنى لو يرجعوننا من الناصرة إلى صانور ثانية للبحث عن قافلة دمشق، وتمنى عليَّ كذلك أن أعده إن جئت ثانية إلى سوريا أو فلسطين إمّا خلال عودتي من الهند أو أي فترة لاحقة أن أحضر عنده وأقيم في القلعة شهراً على الأقلّ.



(7)

رحلة الدكتور روبرت ريتشاردسون
رحلات عبر البحر الأبيض المتوسّط وأجزاء مجاورة برفقة حاكم مقاطعة بلمور خلال السنوات 1816و 1817و 1818



رحلة الدكتور روبرت ريتشاردسون 1816- 1818: رحلات عبر البحر الأبيض المتوسّط وأجزاء مجاورة برفقة حاكم مقاطعة بلمور خلال السنوات 1816و 1817و 1818[1]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى جنين بعد مروره بسبسطية وبيت إمرين[2]:

وبعد أن غادرنا ذلك الوادي قطعنا الجبال إلى جهة اليسار، وبعد مسير نحو ساعة عبر وادي ضيّق وعرٍ ومليء بالحجارة، وصلنا إلى قرية جبع المحاطة بأشجار الزيتون والرّمان، وكان الرّمان في كامل إزهاره، وتحتلّ هذه القرية موقعاً شاهقاً يطلّ على وادٍ صغير. ومن جبع واصلنا السير عبر وادي صانور، وقرية صانور حصن يقوم فوق جبل معزول يبرز في منتصف الوادي، واسمها الشائع بين الناس قلعة جرّار (Gala Giurali) أو (Fort Jurali)، وهو اسم مأخوذ من جرّار (Giurali) وهو اسم الزعيم الذي يحكم ذلك البلد.

وبعد بضعة أميال من هذا المكان نصل إلى قباطية (Abata) وهي قرية جميلة على يميننا وتشبه في موقعها قرية جبع، حيث تقع بين أشجار الزيتون والرّمان. ويقال إن السكّان مضيافون ولطيفون وبشكل خاصّ مع الغرباء، لكنّنا لم نتوقف لنجرّب كرمهم وضيافتهم.

(1) Robert Richardson, Travels along the Mediterranean and Parts Adjacent, in Company with the Earl of Belmore, 2 vols., London, 1822

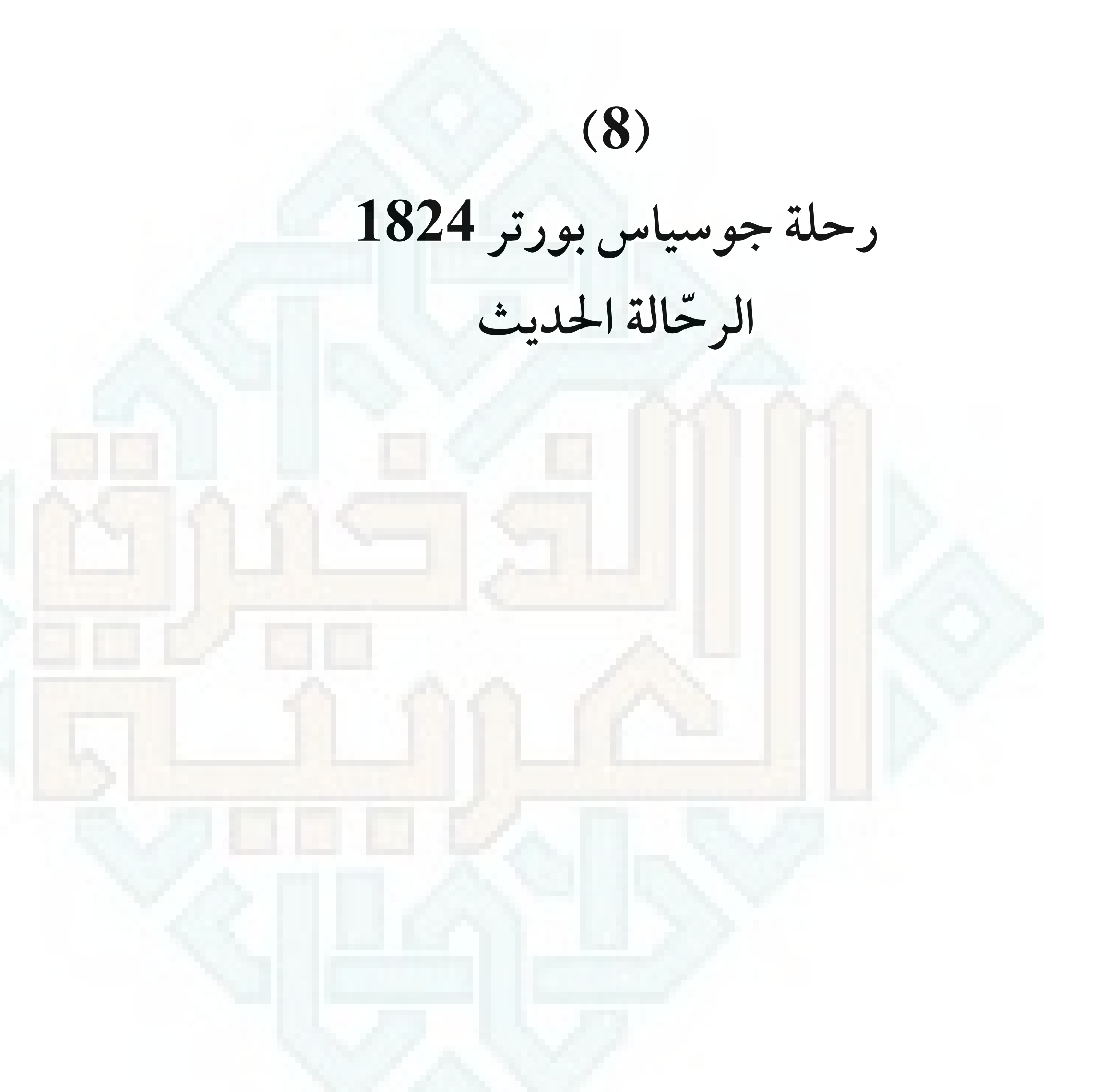
(2) 2: 416.



(8)

رحلة جوسياس بورتر 1824

الرّحالة الحديث





رحلة جوسياس بورتر 1824[1]:
الرحّالة الحديث

يقول في وصف الطريق من نابلس إلى الناصرة[2]:

"إنّ الطريق التي سلكها الدكتور ريتشاردسون (Dr.Richardson) تمرّ الآن عبر الجبال الواقعة إلى الشرق من سبسطية، ثمّ تنحدر نحو مبنى مهدوم يسمّيه أهل تلك البلاد بيت إمرين (بيت الأميرين) بجانب قرية تحمل الاسم نفسه، وبجانبها جدول ماء.

وبعد أن يترك هذه القرية يواصل قائلاً:"ثم قطعنا الجبال إلى الشمال، وبعد مسير نحو ساعة من الزمن عبر وادٍ صغير ضيق شديد الوعورة ومليء بالحجارة، وصلنا إلى قرية جبع، وهي محاطة بأشجار الزيتون والرمّان، وكانت أشجار الرمّان في كامل إزهارها. وهي تحتلُّ موقعاً شاهقاً يطلُّ على وادٍ صغير. ومن جبع واصلنا المسير عبر الوادي إلى صانور، وهي عبارة عن حصن يقف فوق جبل منعزل يرتفع في وسط ذلك الوادي، ويقال لها قلعة جرّار، نسبة إلى اسم الزعيم الذي يحكم تلك البلاد. وبعد بضعة أميال وصلنا إلى (Abata)، قرية جميلة على يميننا، وتشبه في موقعها موقع جبع بين أشجار الزيتون والرمّان. ويقال إن السكان مضيافون ولطفاء مع الغرباء. لكننا لم نتوقف لنجرب ضيافتهم، بل واصلنا طريقنا عبر واد ضيق واجتزنا جبلاً آخر على اليسار، حتى وصلنا إلى مرج ابن عامر الجميل، ثمّ انحدرنا إلى بقعة مستوية مليئة بالحجارة وفيها نباتات شوكية، ثمّ نصبنا خيامنا خارج البلدة، وبذلك نكون قد سافرنا في ذلك اليوم ثماني ساعات"[3].

صانور (Sanoor) أو صانهور (Sanhoor) وقد سمّاها الدكتور كلارك: سانتوري (Santurri)، وهي تستحق وقفة متأنيّة أكثر، وقد وصفها بأنها تبعد ثلاث ساعات أو تسعة أميال عن جنين.

أمّا قلعتها التي يصفها بأنها كثيرة الشبه بالقلاع القديمة في إنجلترا، فهي قوية جداً، وقد صمدت أمام الجزار باشا –عندما تولى باشويّة دمشق– لمدة شهرين، ثمّ أرغم على رفع الحصار. ومن المؤكد أنها كانت في أيام الصليبيين شديدة المنعة، ومع ذلك –يقول الدكتور كلارك– فإنه ليس لها ذكر لدى أي مؤلف، وبالتأكيد فإنّ تاريخ بنائها ليس متأخراً إلى ما

(1) Josias Porter, The Modern Traveller, a popular description of the various countries of the globe: Palestine, London, 1824.

(2) ص 262– 264.

(3) انظر رحلة ريتشاردسون سنة 1816– 1818.

بعد الحروب الصليبية بل أقدم من ذلك.

وإذا ما أعطي الرحّالة الحديث تهجئة اسمها بدقة فإنه سيلاحظ أن اسمها –سواءً من حيث المعنى أو اللغة– هو "البرج المقدس"[1] ممّا يؤكد أنها ترجع لعصر الحروب الصليبية. ولكن بدون شكّ فإن المؤلفين الأقدم قد سَمَّوْها باسمها الأصليّ. إنّ صمتهم المفترض على أية حال هو الذي أغرى الدكتور كلارك في أن يخاطر في هذا الحدس الغريب الذي يرى فيه أن صانور هو موقع السامرة (Samaria)، وذلك أنه رغم تنقّله عبر الأرض المقدسة فقد نسي أن يزور أو حتى يلقي نظرة على سبسطية.

إنّ هذه التلة (صانور) تشرف على منظر الوادي العريض الجميل في الجهة الشمالية، وهي محاطة بتلال أخرى من جميع الجهات، وبعرض ميلين وطول خمسة أميال. أمّا الوادي من الجهة الجنوبية فإنه أضيق، وكلا الجانبين خصبان وتجري فلاحتهما.

إنّ الصعود إلى القلعة حادٌّ من جميع الجهات. أمّا أسوار البلدة فإنها ذات بناء قويّ، ويظهر بجلاء –كما يقول السيّد بكنهجام– أنه من البناء العربي القديم، وأنّ محيطها هو أقلّ من نصف ميل، ولها بوابتان في الشطرين المتقابلين. وقد بنيت منازلها بإتقان، ولكنّ طرقاتها ضيّقة، وجميع سكانها مسلمون.

إنّ حاكمها– الذي جاء بعده الحاج أحمد جرّار– تابعٌ لدمشق، لكنه حاكمٌ مطلق الصلاحية في منطقة نفوذه التي تضمّ عدة بلدات وقرى مع أراض شاسعة حولها، كما لو أنها لسيّد إقطاعي. ويوصف الحاج أحمد بأنه ذو شخصية ودودة وأبويّة، وبأنّه قد لاحت على وجه بلده علامات الفرح والسرور بآثار رفقه برعاياه وحكمه الأبويّ اللطيف.

---

(1) Santurri مؤلفة من Saint أي مقدس، و Turri أي برج.

(9)

رحلة ميتشاو وبوجولا سنة 1830-1831

مراسلات من الشرق



رحلة ميتشاو وبوجولا سنة 1830- 1831[1]:
مراسلات من الشرق

يقول بوجولا في رسالة كتبها من القدس يصف جانباً من مشاهداته في عكا وصانور في السادس والعشرين من نيسان 1831[2]:

وفي إحدى رسائلي التي أرسلتها من القدس تحدثت عن حصار قلعة صانور، واسم هذه القلعة يوحي لي بأنه من أصل إفرنجي، وهي تحوير لكلمة سنيور (Senior) أو (Seignor)، فقد سقطت هذه القلعة بعد ستة أشهر من الحصار، وسقط أكثر من ستة آلاف من المهاجمين برصاص المدافعين أو إثر أمراض ومجاعات.

وقد كانت المجاعة على المدافعين عن قلعة صانور أشدّ منها على قوات عبد الله باشا، ممّا جعلهم يستسلمون.

وسرعان ما تحولت هذه القلعة إلى حطام، ولم يتبق منها سوى التلة الصخرية التي كانت مبنية عليها. وممّا يزيد من عظمة هذا النصر أن الجزّار باشا قد سبق وحاصر هذه القلعة لعدة سنوات دون أن يستطيع إخضاعها. ولكن تحطيم القلعة لم يُنه الحرب، فما زال الفلاحون المنتشرون في نابلس مستمرين في ثورتهم مع حماسة جديدة.

ولم يستطع الراهب كاتافاغو أن يترك هذا النصر دون احتفال، وقد أقام حفل عشاء في منزله الخاص لعبد الله باشا على الطريقة الأوروبية، ليبدو وكأنه يريد أن يقول لعبد الله باشا المنتصر إنّ الفرنجة أنفسهم ما كانوا يستطيعون بمفردهم أن يحرزوا نصراً أفضل ممّا أحرزت.

قال لي السيّد كاتافاغو سرّاً إنّه خلال هذا الاحتفال كانت تجري أنهار النبيذ والخمور الأوروبية بغزارة لدرجة أنّ الباشا المنتصر الذي اندفع في التقاليد الأوروبية فقد عقله وخسر قصره ولم يستطع استعادته إلاّ بعد عناء كبير.

وكان هذا العشاء يقام بسرّية تامّة وأبواب مغلقة. وكان الوزير قد سرّح كل حاشيته بعيداً عن المكان.

وفي الصباح الذي تلا هذا الاحتفال قام عبد الله باشا ومن باب ردّ الجميل بإرسال خاتم مرصّع بالألماس باهظ الثمن للسيّد كاتافاغو.

---

(1) Michaud M. Et Poujoulat M., Correspondance d' Orient, 1830- 1831, Paris, Daucoliet, Libraire- Editeur, Vol. 5, 1834.

(2) ج 5، ص 424- 425.



(10)

رحلة مايكل رَسِل سنة 1831

فلسطين أو الأرض المقدسة من أقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر



رحلة مايكل رَسِل سنة 1831:
فلسطين أو الأرض المقدسة من أقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر[1]

يقول في وصف الطريق من القدس إلى الناصرة مروراً بسبسطية وجبع وصانور وجنين، ويتحدث عن كلارك قائلاً[2]:

"وهو يميل إلى الاعتقاد بأنّ موقع السامرة (Samaria) القديم هو الأرض المرتفعة التي تقف عليها قلعة صانور (Santorri)، ولكن تفسيره لذلك ليس مقنعاً بما فيه الكفاية، ولا يمكن لعقل أيّ من قرائه أن يتقبل ذلك.

ثمّ نواصل السير شمالاً حيث يصل المسافر إلى قرية صغيرة تدعى بيت إمرين، وبعد ذلك، وعلى مسافة ثلاثة إلى أربعة أميال، يجد نفسه في جبع، وهي قرية محاطةٌ بأشجار الزيتون والرمّان وتحتل قمة شاهقة فوق وادٍ ضيّق.

ثمّ تأتي بعد ذلك صانور وهي لا تعدو أن تكون قلعة تقف فوق تلّة معزولة، وهي معروفة باسم قلعة جرّار (Fort Giurali).

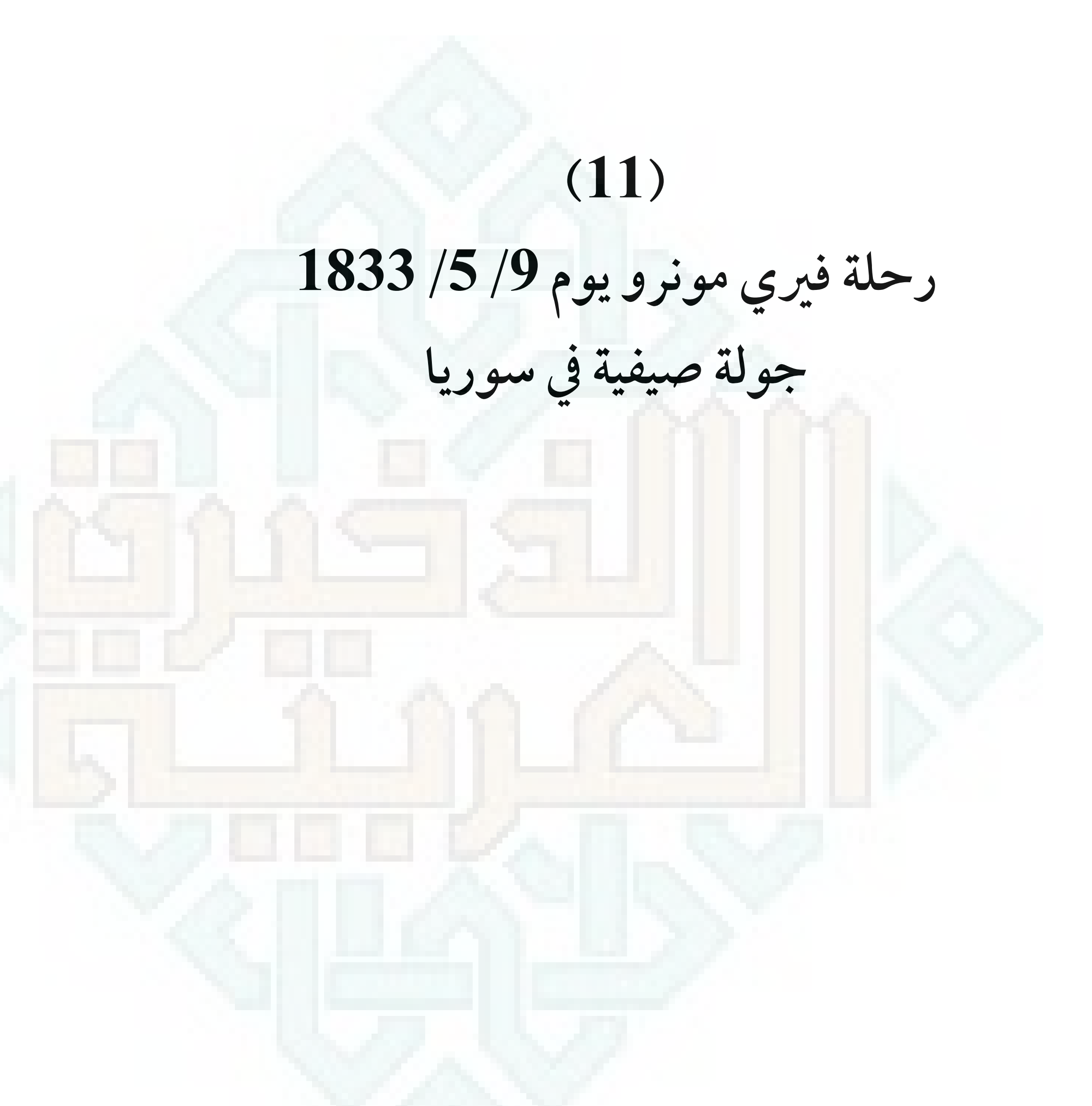


---

(1) Michael Russell, Palestine or the Holy Land from the Earliest Period to the Present Time, New York, Harper's Stereotype Editions, 1838

(2) ص 208– 209





(11)

رحلة فيري مونرو يوم 9/ 5/ 1833

جولة صيفية في سوريا



رحلة فيري مونرو يوم 9/ 5/ 1833:
جولة صيفية في سوريا [1]

يقول في وصف صانور في أثناء قدومه من نابلس باتجاه الجليل [2]:

وبعد المسير بين هذه الجبال لمدة ساعتين ونـصف الـساعة، فـإنّ الطريـق تنحـدر في وادٍ ضيق شديد الانحدار، تنبع فيه عين ماء تتخلل بساتين الرمّان القريبة، وعلى بُعْدِ ميـل واحـد من هذا الوادي توجد عين أخرى في المكان الذي ربّما يمثل مواقع العيون التـي كانـت تحـت بيثوليا (Bethulia) في المكان الذي قُيّد فيه Achor وقتل عن طريـق خـدّام هولـوفيرنس، حيث جرى بعد ذلك اجتياحها من قبل خمـسة آلاف رجـل مـن الجـيش الآشـوري، عنـدما "خيّموا في الوادي واستولوا على المياه وعيون الميـاه" التـي كـان أهـل بيثوليـا يحـصلون عـلى مياههم منها، وذلك من أجل القضاء عليهم عطشاً وكي تستسلم مدينتهم.

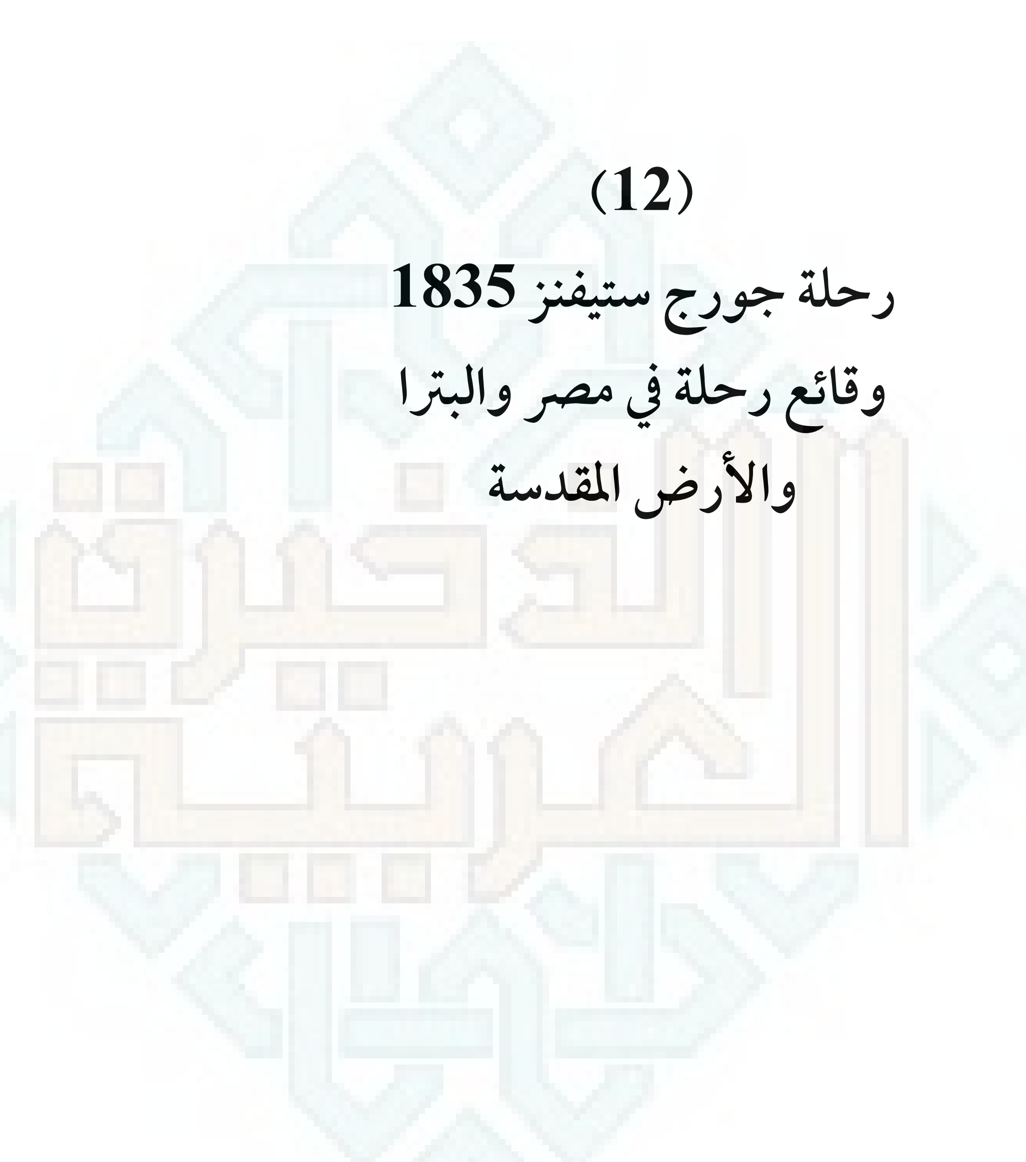


---

(1) Vere Monro, A Summer Ramble in Syria with a Tartar Trip from Aleppo to Stamboul, 2 Vols., Richard Benthley, London, 1835

(2) 2: 11.





(12)

رحلة جورج ستيفنز 1835

وقائع رحلة في مصر والبترا والأرض المقدسة



رحلة جورج ستيفنز[1] 1835:
وقائع رحلة في مصر والبترا والأرض المقدسة[2]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى سبسطية ثم صانور إلى جنين والناصرة[3]:

"ولدى ركوبنا مارّين من خلال سلسلة من الأودية الجميلة وكلّها قريبة من ضفاف جدولٍ جارٍ، ثمّ بعد وقوفنا في ظلّ وارفٍ لشجر الزيتون من أجل تناول وجبة الغداء، وصلنا إلى صانور[4]، وهي تقف على تلة معزولة تشرف على منظر ممتدٍّ للبلد، وكانت في ما مضى مكاناً حصيناً جداً، وله برج وأسوار، ويعتقد أنها بنيت في زمن الحروب الصليبية، ولكنها الآن مدمّرة بالكامل وتحوّلت إلى خراب. وقبل ثلاث سنوات[5] تمت السيطرة عليها بعد حصار دام ستة أشهر فرضه عليها عبد الله باشا كبير جنود السلطان، وقد تعرض سكانها المتمردون للقتل وأحرقت بيوتهم وسوّيت بالأرض.



(1) رحّالة أمريكي (1805 – 1852) كانت قافلته تتألف من خمسة جمال وأربعة مرافقين عرب والمؤلف وصديقه باول، وبدأ الرحلة في كانون الأول 1835.

(2) George Stephens, Incidents of Travel in Egypt, Arabia Petraea and the Holy Land, (2 Vols) London, Richard Bentley, 1838

(3) 2: 315.

(4) في الأصل Sanpoor.

(5) سنة 1830.



(13)

رحلات روبنسون وسميث سنة 1838

أبحاث إنجيلية في فلسطين وجبل سيناء والبترا:

جملة من الرحّلات



رحلات روبنسون[1] وسميث إلى فلسطين سنة 1838 [2]
أبحاث إنجيلية في فلسطين وجبل سيناء والبترا: جملة من الرحّلات

يقولان في وصف رحلتهما من سبسطية إلى جنين في 15 تموز 1838[3]:

وفي الساعة الثانية والنصف انطلقنا ثانيةً وواصلنا السّيْرَ لمدة عشرين دقيقة حتى اجتزنا أضيق جزء في الوادي، وهو عبارة عن وادٍ صغير مليء بالحجارة ويطلُّ على مرجٍ مفتوح وراءه، ثم انعطفنا نحو الشمال الشرقي، حيث بدت لنا صانور، آثار واقعة على تلّة صخرية منعزلة أمام أعيننا.

وبعيداً عن ذلك بنحو خمس عشرة دقيقة وصلنا إلى مجمع مائي في المرج، حيث لا توجد بعد ذلك مياه تنساب نحو الغرب. وقد كان الوادي ينفتح تدريجياً على مرج ممتدٍّ شرقي صانور.

وفي الساعة الثالثة وعشر دقائق وصلنا إلى نقطة على يسار الطريق كُنّا قد أُرشدنا لها، حيث كان يقام بازار أسبوعي يؤمّه الفلاّحون من المناطق المجاورة. وفي الوقت نفسه كانت قرى ميثلون ومسيلية على مرأىً منّا على جهة اليمين ، حيث تبعد الأولى نحو نصف ساعة إلى الجنوب الشرقي، أما الثانية فتبعد ما يقرب من ساعة نحو الشمال الشرقي. وقد اجتزنا قاعدة التلّة التي تقف عليها صانور في الساعة الثالثة والثلث جاعلين القرية وآثارها فوقنا من جهة اليسار.

إنّها قرية وحصنٌ قديم تقع على تلة صخرية مستديرة ذات ارتفاع شاهق، ورغم أنها معزولة في ذلك المرج إلاّ أنها متصلة مع الجبال المنخفضة في الشمال الغربي فقط بسلسلة تلال صخرية أكثر انخفاضاً.

لقد كان لهذه القرية ذات زمن شأن عظيم، فقد كان الحصن فيما مضى قويّاً جداً، وقد أصبحت بسبب الأوضاع التي مرّت بها منيعة وعصيّة على الأعداء.

وقد كانت هذه القرية تخصّ واحداً من شيوخ البلاد المستقلّين، الذي كان يعدّ رسميّاً واحداً من رعايا الباشا التركي، إلاّ أنّه لم يكن دائماً يدين له بالطاعة.

---

(1) ولد إدوارد روبنسون في أمريكا سنة 1794، تخرج من كلية هاملتون في نيويورك سنة 1816، ثمّ اختص بالدراسات العبرية، درس في ألمانيا وعاد إلى أمريكا وعين أستاذاً للدراسات الإنجيلية في سنة 1831، وفي 1838 ذهب إلى فلسطين وألّف كتابه عنها، وعاد إلى أمريكا وتوفي فيها سنة 1863.

(2) Edward Robinson, Eli Smith, Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia(2) Petraea, A Journal of Travels in the year 1838, London, 1841, Vol. 3.

(3) رحلات روبنسون وسميث 3: 151– 153.

وقد قام الجزّار سيّء السمعة ذات مرّة ومعه خمسة آلاف من رجاله بمحاصرة ذلك الشيخ لشهرين في قلعته، ولكن دون جدوى. (Browne's Travels, p. 565, Clarke's Travels in the Holy Land, p. 504, this was before A.D. 1799).

وبعد أكثر من ثلاثين سنة حيث أعلن هذا الزعيم تمرّداً مفتوحاً ضدّ عبد الله باشا أمير عكا، فقد قام هذا الضابط بمحاصرة الحصن سنة 1830، وكانت عكا قبل ذلك بعام واحد قد حوصرت من قبل الجيش المصري. وبمساعدة قوات الأمير بشير أمير جبل لبنان، فقد نجح عبد الله باشا في الاستيلاء على القلعة بعد حصار دام ثلاثة إلى أربعة أشهر، ودمّر الحصن واقتلع أشجار الزيتون. وهي الآن مجرّد كومة من الآثار لا شكل لها، حيث ما زال يأوي إليها عدد قليل من العائلات الذين يعيشون بشكل رئيسي في الكهوف.

وقد وصفت القلعة بأنها تحمل ملامح العصور الوسطى، إلاّ أنني لم أجد أي إشارة إلى ذلك من أي كاتب من العرب أو الإفرنج حتى القرن الحالي، ولذلك فإنها ربّما لا تعود إلى تاريخ قديم جداً.

إنّ المرج الواقع إلى الشرق من صانور هو بقعة جميلة وهو ذو شكلٍ بيضوي أو تقريباً مستدير، قطره ثلاثة أو أربعة أميال محاطٌ بتلال بديعة ليست مرتفعة. إنّه منبسطٌ تماماً وذو تربة طينية غامقة غنية وخصبة إلى أقصى حدّ. أما مياهه فيبدو من الطبيعي أنها تنبجس من مكان ما في الجهة الجنوبية الشرقية، ولكن ليس من السهل تبيُّن أيّ منفذ لها بين التلال التي بحثنا فيها، وقد أُخْبرنا بعدم وجود أيّ منفذ.

ويقال إنّ هذا السهل يتشرّبُ مياهه، وأنها في فصل الشتاء تتجمع وتتحول إلى بحيرة ممّا يجعل طريقنا هذه غير سالكة. ولهذا السبب فإنّ هذا السّهل يزرع بشكل رئيسيّ بالدُّخن والمحاصيل الصيفية، على الرغم من أنه في الجزء الشمالي الغربي منه حيث سطح الأرض أكثر ارتفاعاً نجد الفلاحين منخرطين في زراعة القمح. وبسبب الوحل الذي يشهده هذا السهل في الشتاء فقد أُطْلِقَ عليه اسم مرج الغُرُق. ويحيط بهذا المرج من حدوده الشمالية والشرقية عدّة قرى.



(14)

رحلة إدوارد بلونديل 1839

سنتان في سوريا وفلسطين



رحلة إدوارد بلونديل 1839:
سنتان في سوريا وفلسطين (1838- 1839)[1]

يقول في وصف طريقه من الناصرة إلى القدس مروراً بصانور في الرابع من آذار[2]:

"ندخل جبال السامرة مبتعدين عن جنين، وهذه الجبال تحتفظ بصفات الخضرة والنضارة، وقد جعلتها حركة المواطنين أكثر جاذبيّةً من جبال الجليل التي تتصف بالوحدة، في كل لحظة تظهر من خلف التلال قرىً تختبئ وراء أيكةٍ من الشجر، ذات خلفية زرقاء من السماء ممّا يبرز شخوص هذه القرى الجميلة.

وبعد قرية صانور[3] على يمين الطريق نصل إلى السامرة حيث نجدها اليوم مدمرة ومهجورة وعلى مدى النظر حطام وعدد كبيرة من الأعمدة التي ما تزال واقفة تمثل علامات على حدود المدينة.



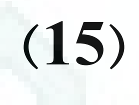
---

(1) Edouard Blondel, Deux Ans En Syrie et En Palestine (1838- 1839), Paris, 1840

(2) ص 206.

(3) في الأصل Sanoun





(15)

رحلة ستيفن أولنْ سنة 1839

رحلات في مصر والبترا والأرض المقدسة



رحلة ستيفن أولنْ 1839:
رحلات في مصر والبترا والأرض المقدسة[1]

يقـول في وصـف رحلتـه مـن نـابلس إلى جنـين والنـاصرة مـروراً بسبـسطية ثـمّ جبـع وصانور[2]:

ولدى انحدارنا من الجبل قادتنا الطريق باتجاه الـشمال الـشرقي، حيـث واصـلنا الـسير بمحاذاة قاعدة الجبل حيث كان السهل على يسارنا.

وقد مررنا بقريتين، الثانية منهما والأكثر أهمية تدعى جبع وقد وصلناها الساعة الواحـدة بعد الظهر، وهي شأنها شأن جميع القرى في تلك المنطقة، محاطة بغابة من أشجار الفواكه، ممّـا يعطيها، عندما يراها المرء من مسافة قريبة، مظهراً متناغماً وأنيقاً. ثمّ دخلنا وادياً آخر، بل هـو استمرار للوادي الأول يتصل معه بوادٍ ضيّق مسطّح قليلاً وفيه ارتفاع قليل.

وبعد ساعة ونصف من المسير من جبع مررنا بقرية محصّنة عـلى يـسارنا، وتحتـل موقعـاً مرتفعاً في نهاية أنف الجبل تماماً الذي يمتدّ بعيداً في السهل من جهة الشمال الغـربي. وتـدعى هذه القرية صانور، ويبدو أنها كانـت مكانـاً ذا قـوة عـسكرية عظيمـة، وذلـك لأنّ موقعهـا الطبيعي في حقيقة الأمر مفضّل جداً، حيث تعلو المرج الذي يحيط بها تقريباً وقد شيّدت فوقه بشكل مناسب. بينما تنحدر القمة التي تربطها مع السلسلة الجبلية الواقعة في الجهـة الـشمالية الغربية مباشرة داخل سلسلة صخرية منخفضة ومتكسّرة.

وقد كانت تعدّ مركزاً مهمّاً في الحروب التي كان يشنّها الزعماء الصغار لهذه المنطقـة ضـدّ بعضهم بعضاً ومع الحكومة التركية. أمّا البلدة وحصنها فهي الآن مجرد كومة من الآثار.

وقد غطيت مساحات كبيرة من هذا السهل بحقول القمح الذي كان يبدو فـاخراً، بيـنما كان القسم الأكبر منه قد تمت حراثته مؤخراً ولم يبذر أو أنه بذر متأخراً فلم ينبت.

---

(1) Stephen Olin, Travels in Egypt, Arabia Petraea and Holy Land, 2 Vols., Happer and Brothers Publisher, New York, 1860.

(2) 2: 375 – 376.



(16)

رحلة والتر كيتنغ كيلي قبل سنة 1844

سوريا والأرض المقدسة مشاهدها وأهلها



رحلة والتر كيتنغ كيلي قبل سنة 1844: سوريا والأرض المقدّسة مشاهدها وأهلها[1]

يقول في وصف طريقه من نابلس إلى جنين بعد مروره بسبسطية وبرقة[2]:

وبعد ركوبنا عبر سلسلة من الأودية الجميلة، حيث كان جانبا الطريق تقريباً يحاذيان جدول ماءٍ جار، وحيث كان هناك عددٌ كبير من القرى نشاهدها خلال الطريق، حتى وصلنا إلى صانور وهي رابضةٌ على تلة منعزلة تشرف على مساحة كبيرة ممتدة من البلاد، وقد كانت ذات يوم مكاناً محصّناً جدّاً، لكنّه الآن مدمّرٌ بالكامل، وقد حاصر الجزّار سيئ الذكر ذات مرّة بخمسة آلاف رجل زعيم ذلك المكان في معقله لمدّة شهرين، ولكن دون جدوى.

ولكن، وبعد أكثر من ثلاثين سنة من ذلك التاريخ، ضرب عليه عبد الله باشا زعيم عكا حصاراً مشدّداً يساعده في ذلك قوّات الأمير بشير، وبعد حصار دام ثلاثة إلى أربعة أشهر تمّ الاستيلاء على القلعة، وقد وضع السيف في رقاب أهلها المتمردين، وأحرقت بيوتهم ودمّرت تدميراً تامّاً وسوّيت بالأرض.

أمّا المرج الذي يقع شرقيّ صانور فهو جميل وجذّاب، وهو بيضوي الشكل تقريباً، وقطره ثلاثة أو أربعة أميال، ومحاطٌ بتلالٍ بديعة منخفضة. وحيث أنه لا يوجد أي مخرج لمياهه فإنّ هذا المرج يتحول إلى بحيرة في فصل الشتاء، ولذلك أطلق عليه اسم مرج الغُرُق.

---

(1) Walter Keating Kelly, Syria and the Holy Land: Their Scenery and Their People, London, Chapman and Hall, 1844

(2) ص 430– 431





(17)

رحلة سبنسر سنة 1848

مصر والأرض المقدّسة



رحلة سبنسر سنة 1848[1]:
مصر والأرض المقدّسة[2]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى الناصرة مروراً بسبسطية وبرقة ثمّ جبع وصانور[3]:

وبعد اجتيازنا قرية برقة ببساتين زيتونها عبرنا سهلاً واسعاً، وشاهدنا قرية الفندقومية وبجانبها عددٌ من الينابيع، ثمّ صعدنا التلال مرّة ثانية، ومررنا بقرية جبع التي يوجد بينها وبين آخر قرية مررنا بها نزاع شديد وقعت بسببه معركةٌ بين القريتين في اليوم التالي. وهناك تناولنا الغداء تحت أشجار الزيتون.

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف وصلنا إلى صانور، وهي تقع على رأس تلة مخروطية عالية. وهي ذات موقع أخّاذ حتى لذوي النظر غير العلمي، إذ تتّسم بقوّة طبيعية عظيمة، ممّا يجعل الفنّ قادراً بسهولة على أن يصوّرها مكاناً مثالياً.

إنّها الآن لا تعدو أن تكون قرية صغيرة لا شأن لها، فتحصيناتها أصبحت خراباً، لكنّها كانت ذات زمن منيعة جداً، حتى إنّها تمكنت من مقاومة قوّة سيئ السمعة الجزار باشا المؤلفة من خمسة آلاف رجل الذي حاصرها لمدة شهرين واضطر بعدها للتراجع دون أن يحقّق أيّاً من أهدافه.

وفي سنة 1830 نجح عبد الله باشا في الاستيلاء على القلعة بعد حصار دام بضعة أشهر، ومن أجل أن لا تعود القرية معقلاً للمتمردين في المستقبل، فقد قام بتدمير الحصن وقطع أشجار الزيتون جميعها، مخلّفاً إيّاها، كما رأيناها للتوّ، كومة لا شكل لها من الآثار.

ولدى متابعتنا الطريق في السهل الواقع ما بعد صانور، الذي لا يعدّ جميلاً فحسب حيث أنه محاطٌ بتلالٍ لا تحصى، بل إنه كذلك خصب وغزير الإنتاج، وقد لاحظنا هنا وهناك بركاً من المياه السطحية وصفها الدكتور روبنسون بأنها من مميّزات هذا المرج أو

---

(1) أنهى سبنسر رحلته في ربيع 1848، وهو رجل دين ولد في نيويورك سنة 1816، عمل في شركة طباعة تعود لوالده في نيويورك، ثم تخرج من جامعة كولومبيا سنة 1837، ثم تولى مناصب دينية رفيعة ونشر مجموعة من الكتب.

(2) J.A. Spencer, Egypt and the Holy Land, New York, 4th Edition, 1857، وقد نشرت هذه الرحلة مرّة أخرى بعنوان آخر هو: الشرق. انظر Jesse Ames Spencer, James Fredrick Spencer, The East, New York، وقد ورد هذا النصّ في رسالة أرسلها المؤلف من الناصرة في 22 نيسان 1849 (ص 429- 430).

(3) ص 429- 430.

الوادي، ثمّ صعدنا ثانية مع جوانب التلال في أثناء تقدّمنا، حيث سررنا – في حوالي الساعة الثانية– بمشهد رائع لتلك المنطقة التي كنّا نمرّ منها حيث تشكل المرتفعات والجبال المحيطة بالناصرة جزءاً معتبراً من المشهد الكلّيّ.



(18)

رحلة هنري بورجس ويتاكر تشورتون 1850

أفكار حول أرض الصباح:

وقائع رحلات إلى فلسطين



رحلة هنري بورجس ويتاكر تشورتون[1] 1850[2]:
أفكار حول أرض الصباح: وقائع رحلات إلى فلسطين

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى الناصرة مروراً ببرقة وسبسطية وجبع وصانور ومرج ابن عامر[3]:

"وفي الساعة الرابعة إلاّ ربعاً[4] عدنا إلى الطريق الرئيسي الذي يصل بين نابلس والناصرة، وانحدرنا في طريق صخريّة نحو قرية جبع، والتقينا مع أحد سكان جبع كان ممتطياً جواده فألقى علينا التحية ثمّ رافقنا في الطريق. وسألته: كم بقي من الوقت كي يبدأ الناس حصاد القمح؟ فأجاب أنّ الحصاد سيحين بعد عشرين إلى ثلاثين يوماً. وسَألَنا إنْ كنّا قد جئنا "من بلد لُنْدرّيا"[5] كما سألنا عن اسم السلطان فيها. وقد أجبته بأنّ عندنا ملكة هي السلطان وأنّ اسمها فيكتوريا، ثمّ أخبرته بعد ذلك عن العائلة المالكة وعن الملكة وزوجها اللذين يقرآن الإنجيل يومياً. ثمّ سألته إن كان هناك أيّ مسيحيين في جبع، وفهمت من كلامه أن شيخ القرية كان مسيحيّاً"[6].

وبعد ذلك مررنا من أسفل جبع التي تقع على تلّة، ومن ثمّ غادرنا القرية. وفي أسفل جبع وحولها توجد حقول زيتون كثيرة يلي ذلك مساحات مزروعة بالبصل المرويّ. ويعدّ الماء في هذا المكان عنصراً رئيسياً للزراعة.

وفي الساعة الخامسة إلاّ ربعاً مررنا بالقرب من صانور، وقد أعيد بناء أسوارها مجدداً منذ سنة 1847. وكان هناك حوض كبير من الماء يظهر في القسم الأسفل من المرج الواقع تحت صانور، حيث يوجد في طرفه مئات من طيور الكُرْكي (الغرانيق) واللقلق.

وفي الخامسة والربع أشرفنا على منظر تلال الناصرة ماثلة أمامنا، خلف مرج ابن عامر الواسع وهي تضيء بأنوار الشمس المائلة للغروب، وعلى شمالنا كان جبل الكرمل، وفي حوالي السابعة مساء وصلنا إلى جنين.

---

(1) في مقدمة هذه الرحلة، أن تشورتون قام برحلتين إلى فلسطين بينهما ثلاث سنوات.

(2) H.B. Withaker Churton, Thoughts of the Land of the Morning: A Record of the Visits To Palestine, 2nd Edition, London, 1852.

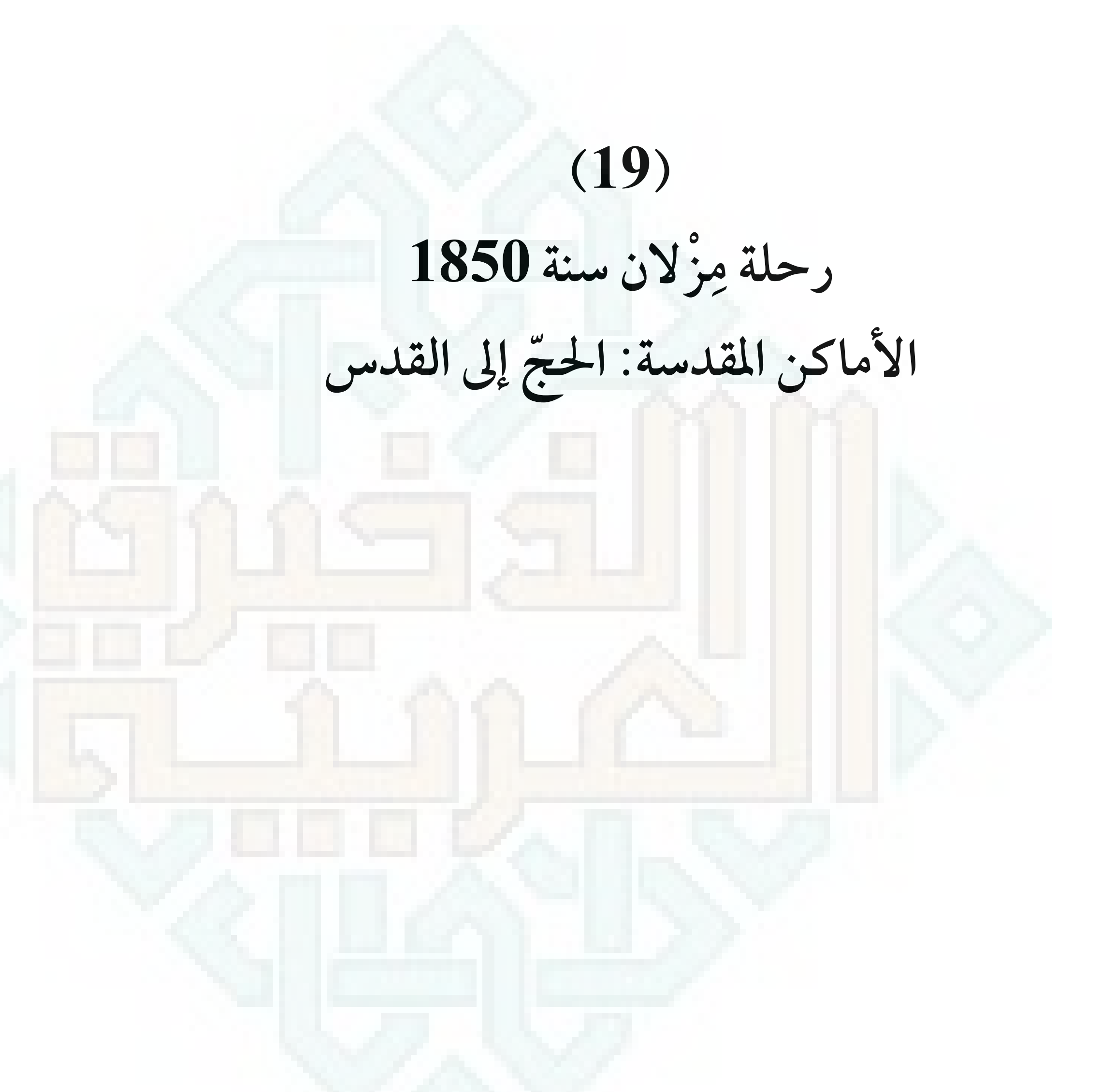
(3) ص 235– 236.

(4) في يوم الخميس 25 نيسان.

(5) أي من لندن.

(6) لعله يشير إلى أن أصل عائلة جرّار من الغساسنة، وأنّهم كانوا لذلك مسيحيين في الأصل.





(19)

رحلة مِزْلان سنة 1850

الأماكن المقدسة: الحجّ إلى القدس



رحلة مِزْلان سنة 1850[1]:
الأماكن المقدسة: الحجّ إلى القدس[2]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى جنين ثمّ الجليل مروراً بسبسطية وصانور وعرّابة[3]:

وعلى الناحية الأخرى كانت هناك عدة قرى، وقد مررنا بالقرب من برج عالٍ فوقه رجال مسلحون يقومون بالحراسة، وكانت هيئتهم كأنهم يعيشون فوق البرج، وبعد قليل نزلنا سهلاً جميلاً ورأينا جبلاً تعلوه قلعة بحالة سيّئة، وهذه هي مدينة صانور (Santorri) التي نعتبرها اليوم قائمة فوق المكان المعروف قديماً باسم بيثوليا (Bethulia).

وبعد حديثه عن علاقة صانور بالمكان المعروف قديماً باسم بيثوليا، وقد أوردنا جزءاً منها في الحاشية (3)، يتحدث عن صانور قائلاً:

وقد اعتقد كلارك أنّ هذه المدينة هي السامرة، وقال إنه رأى فوق جبل على بعد ثلاثة فراسخ جنوب جنين قلعة تسمّى (Santorri) ولم تكن معروفة لجميع الرحّالة.

وبعد ستة أشهر من الحصار سقطت قلعة صانور سنة 1831 على يد عبد الله باشا القادم من عكا، وقد خسر عبد الله باشا ستة آلاف رجل على أبواب هذه القلعة، وما كانت لتسقط بين يديه لولا المجاعة (التي أصابت أهلها)، أمّا أسوارها التي هدمها عبد الله باشا

---

(1) وصل إلى صانور يوم 25 أكتوبر 1850.

(2) Mislin M., Les Saints Lieux: Pélerinage a Jérusalem, Paris, 1851.

(3) ج1، ص 382- 383.

وقد ناقش مزلان موضوع علاقة صانور ببيثوليا قائلاً:" وقد كان القسيس الأكبر (إلياسم) قد كتب إلى سكان السامرة جميعهم وسكان المناطق المحيطة بتلّة مرج ابن عامر بالقرب من دوثان (عرّابة) أن يقيموا في الطرق الجبلية القادمة من القدس، وأن يحرسوا هذه الأماكن جميعاً، وأن يبنوا الأسوار وأن يجمعوا القوات استعداداً للقتال. وقد جاء هوليفيرنو القائد الآشوري ومعه (120) ألف جندي و (22) ألف فارس للعسكرة في الوادي القريب من بيثوليا، وبالقرب من عين الماء. وكان هذا الجيش لضخامته يمتد عرضاً من دوثان إلى بلما، وطولاً من بيثوليا إلى اليامون، الموجودة بالقرب من مرج ابن عامر. (جوديث/ الفصل السابع).

إنّ الطريق الأكثر استقامة من تلّة مرج ابن عامر إلى القدس تمرّ بصانور، ولم يكن هناك أي قلعة في المناطق المحيطة لديها موقع أفضل من موقع صانور لمقاومة هذا الجيش القوي، وهذه العبارات التالية المقتبسة من كتاب جوديث تلائم تماماً وصف هذا المكان (صانور)........ (الفصل السابع من كتاب جوديث).

لقد كان الخلاف على قضية عين الماء التي وجدها هولوفيرنو وهو يجوب الأماكن المحيطة، وقد كانت هذه العين تجري في وسط المدينة، وكان باستطاعتنا أن نتخيل سكان بيثوليا ينعمون بهذه المياه خلال الحصار، أمّا اليوم فلم أستطع أن أجدها، حيث أن الماء الموجود في المدينة هي مياه موحلة، (ثم يتحدث عن قصة جوديث وقتلها للقائد الآشوري).

فقد كان بناها إبراهيم[1] (الجزّار)، ولكنّ المقاومة الضارية لسكان صانور، زادت من تدمير الأسوار ممّا جعلها تبدو كما هي عليه اليوم، فهي اليوم متصدّعة، واليوم هناك (15) ألفاً أو (20) ألفاً من الفلاحين مازالوا يسكنون حولها.

---

(1) هو إبراهيم الجزّار الذي قتل في معركة الروحة ضدّ ظاهر العمر سنة 1735.

(20)

رحلة دي ساولسي 1850- 1851

قصة رحلة حول البحر الميت

وفي الأراضي المقدسة



رحلة دي ساولسي[1] 1850- 1851[2]:
قصة رحلة حول البحر الميت وفي الأراضي المقدسة

يقول في وصف رحلته من جنين إلى نابلس مروراً بصانور وجبع في 21/ 12/ 1850[3]:

وبعد اجتيازنا قباطية فإننا نهبط ثانية إلى أحد الأودية، حيث ما زلنا نجد علامات واضحة على وجود طريق قديم، وينفتح إلى جهة الشمال حالاً سهلٌ صغير ضيّق ومحصور بعمق، وهذا السهل هو سهل مسيليه سمّي بهذا الاسم نسبة إلى قرية تبعد نحو مسير ساعة ركوباً عن طريقنا. ووراء هذا السهل فإن الوادي يصبح أكثر ضيقاً مرّة أخرى، والتلال التي تحيط به من اليمين والشمال أكثر تشجيراً.

وأخيراً وبعد مسير ثلاث ساعات تنفتح البلد فجأة، وتقودنا الطريق إلى سهل صانور على يسار بعض أكواخ العمّال، التي تعرف هنا وفي كل مكانٍ بمسمى شائع هو المزرعة.

وقد وجدنا أن تربة هذا السهل هي نفسها تربة مرج ابن عامر، لكنّ مرج صانور فيه نداوة (رطوبة) أكثر، ويخبرنا محمد بأنه في الشتاء يتحوّل إلى بحيرة. ويمتد هذا المرج البديع إلى مسافةٍ كبيرة، نحو ثلاثة فراسخ من جهة الشمال، أما الجانب الأيمن من الطريق فإن التلال تبعد عنه بضع مئات من الياردات.

وعلى بعد خمسة آلاف إلى ستة آلاف ياردة إلى الأمام منّا تتراءى لنا ربوةٌ منفصلة عن سائر التلال تتوجها قريةٌ تبدو من بعيد مثل أحد الحصون. ويقال لهذه القرية صانور، وهي معقل لأحد الشيوخ[4] المعروفين بالقوّة والثراء، والذي يبسط نفوذه بوصفه حاكماً مستقلاً على جميع البلاد حتى تخوم نابلس.

ومرج صانور محاط بنطاقٍ من الجبال المشجّرة ذات المظهر المتناغم. إننا نكتشف قريتين مبنيتين على المنحدر الجنوبي للمرج، وهاتان هما قرية ميثلون التي تبعد أربعة عشر فرلنغ (كل فرلنغ يساوي ثُمْن ميل) عن صانور، وقرية صير التي تبعد عنها ستة أميال.

---

(1) رحالة وباحث فرنسي وله اكتشافات أثرية في القدس، وكان أرستقراطياً، قام برحلته ومعه عدد كبير من أفراد أسرته وأصدقائه ومرافق عربي اسمه محمّد.

(2) Félicien De Saulcy, Narrative of a Journey Round the Dead Sea and in the Bible Lands in 1850 and 1851 including an account of the Discovery of the sites of Sodom and Gomorrah, edited by Count Edward de Warren, 2 Vols., London 1854

(3) 1: 86-94.

(4) هو الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد الله بن يوسف الجرّار.

وتحتل صانور أقوى موقع في البلد برمّتها، ويبدو أنه لا بدّ أن تكون الربوة التي تقع عليها هذه القرية موقعاً لحصن قديم، وربما تكون موقعاً لحصن أربلا (Arbela).

لكنّ من الأمور المؤكّدة أنّ من الصعب أن تجد أرضاً لإقامة معسكر أكثر مناسبة من هذا المرج الذي تمرّ من خلاله الطريق القديمة والذي تمتدّ مع الطريق من صانور إلى ميثلون، مفترضين بالطبع بأنّ قائد هذا الجيش لابدّ أن يكون حصيفاً ويحتلّ بخطّ قوي من القواعد الأمامية جميع الممرّات التي يمكن لأيّ عدوّ أن يتقدم منها ضدّه.

وفي الواجهة الأمامية لتلة صانور توجد ربوة صغيرة أكثر انخفاضاً، يعلو قمتها كومة منتظمة لابدّ أنها تمثل قبراً قديماً، وبالسير مشياً تحت هاتين الربوتين وبالانعطاف إلى أسفلهما نجد الطريق القديمة وقد تمّت صيانتها أفضل من أي طريق أخرى في أي مكان. ولو نظرنا إلى صانور من جهة أخرى لوجدناها تشبه حصناً مربّعاً.

وبعيداً عن صانور بنحو بضع مئات من الياردات وإلى جانب تلك السلسلة من التلال التي تقف صانور على واحدة منها، توجد قرية صغيرة ذات مظهر مُزْرٍ تسمى جربة (Djerbah)، وخربةٌ أخرى مهدمة.

وتشاورنا للحظة مع بعضنا بعضاً في أن نذهب إلى صانور ونتوقف هناك لتناول الإفطار، ثمّ فضلنا بشكل تلقائي أن نفطر في الهواء الطلق. واخترنا أن نفطر تحت شجرة زيتون بعيداً عن القرية وللهرب من إزعاجات الفضوليّين من العامّة. ولذلك قررنا أن نبتعد مسافة نصف ساعة على الرغم من توقنا الشديد للطعام، ثم ترجّلنا داخل حقلٍ في منتصف الطريق بين صانور وجربة.

الجوّ رائع جداً، وعشرات الآلاف من الحشرات الجميلة تتطاير حولنا، وكنّا نتصيّدها بينما كان يجري إعداد الطعام لنا. وبينما نحن مشغولون في حفظ كنوزنا من الحشرات، ظهر لنا فجأة على فرسه رجل متين وقويّ يقدّر بنحو الثلاثين عاماً من عمره، ثمّ تبعه فارسان آخران كانت أثوابهما البالية تتناقض تماماً مع الملابس الأنيقة لقائدهما، وكان الثلاثة مسلّحين جيّداً، ولكن رزانتهم تدلّ بوضوح على أنّ نواياهم لم تكن عدوانية. تبادل محمد والزائر الجديد التحيات وتصافحا، ثمّ انضممتُ إلى الحوار للتعرّف على صديقنا، وقد تبيّن لي أنه خالد ابن شيخ صانور وأنه كان يقوم بجولة استطلاعية في مناطق نفوذه وعلى المزارعين الذين يعملون في أراضيه، وقد كنّا على قدر كبير من التأدّب مع مثل هذه الشخصية البارزة، ودعوناه إلى تناول الإفطار معنا، وقد لبّى دعوتنا بدون تكلّف، وأمر أحد مرافقيه أن يواصل الجولة الاستطلاعية نيابة عنه.

وكانت طريقة إصدار الأمر من قبل هذا السيّد مجرد إشارة في الهـواء، وتبعـاً لـذلك قـام المرافق في الحال وركب فرسه وانطلق ينفّذ أمر سيّده.

وها نحن الآن نستضيف شيخ صانور الشابّ، وكان ينظر إلينا ونحن نصطاد الحشرات ونحتفظ بها هنا وهناك، واكتشف النسر الذي قتله إدوارد في الصباح، وقـد حـيّره كثيراً أن الناس يضيعون أوقاتهم وملـح بـارودهم عـلى ألعـاب لا فائـدة منهـا، وآخـر شيء وأسـوأه تجهيزات الطبخ التي كان ذلك الماكر المتشرّد قسطنطين يقوم بإعـداداها عـلى مـرأى منـه، ممّـا يعطيه -كما بدا واضحاً- انطباعاً سيئاً عن طعامنا. وقد استغرقنا قليلاً في التفكير بتقييمه لنـا قبل أن نبدأ تناول الوجبة، لاشكّ أنه سيأخذنا إلى أفضل الأطبّاء، وأنه سيفضّل تناول الطعام مع والده الشهير، ولعلّه يُسَرُّ بما يشغلنا.

وبينما كنّا ندخّن الغلايين، استمرّ ذلك الشابّ الشجاع باختلاس النظر إلى أسلحتنا التي عرضناها عليه الواحد بعد الآخر، وكان أكثر شيء أدهشه قارورة ملح البـارود التـي كانـت مع لويسل (Loysel)، ولدى مشاهدته لهذا الوعاء، الذي بدا له شيئاً ذا قيمة لا مثيـل لهـا، فإن عيني الشيخ ازدادتا لمعاناً. وقد وجدنا في ذلك فرصة لاستعادة حسن رأيه فينا الذي كنّـا فقدناه في نظره، ولذلك أقنعت لويسل بأن يقـدّم قـارورة ملـح البـارود للـشيخ، ورجـوت الشيخ أن يقبلها منه لتبقى ذكرى لهذا اللقاء. ولم نكن بحاجـة إلى إعـادة هـذا العـرض عـلى الشيخ، ولكن ممّا يتطلب شرحاً بعناية أكبر هو طريقة استخدام النابض (الزنبرك)، فبعد كـلّ درس كان يقول لي برشاقة بالغة: طيّب، فهمت! ثمّ بعد ذلك يحـاول ويخفـق. وقـد تكونـت لديّ قناعة بأنه يوماً ما سوف يفجر نفـسه بهـديّتنا سـيئة الحـظ. (ويـضيف دي ساولـسي في حاشية ص90 "ويا للأسف، فقد علمت أنّه منذ اجتماعنا في صـانور، فـإنّ الـشيخ المـسكين خالد قد قُتل في شجارٍ مع بعض أبناء بلده").

وقد تحققت رغبتنا التي سعينا إليها، وأصـبحنا مـرّة أخـرى رجـالاً ذوي شـأن في نظـر الشيخ، وقد حان الآن دوره ليتصرّف معنا كرجلٍ نبيل. ترى ما الذي فكّر فيه كي يثبـت لنـا كرمه؟ لقد سحب من صدره منديلاً معقوداً مـن طرفـه، ثـمّ قـام بحـلّ عقدتـه وهـو يتنهّـد واستخرج منها قطعة ذهبيّة يقدّر ثمنها بعشرين قرشاً، وهي تعادل ما يقرب من قطعة خمـسة فرنكات، ثمّ دسّها في يـدي. في البدايـة لم أفهـم مـا الـذي كـان يعنيـه، فنظـرت بـشيء مـن الاستغراب إلى قطعة الذهب الصغيرة التي منحت لي بكرم شديد، وسألت نفـسي مـا الـذي يمكن أن أعمله بها، وأعـترف بـأنني احتجـت إلى بعـض الوقـت قبـل أن أدرك بأنـه أراد أن يعطيني صدقة (وهي ما يعطى عادة لسائقي الـسيارات في بـاريس بالإضـافة إلى أجـرتهم).

وعندما تبيّنت ذلك أخيراً سارعت إلى إعادة قطعة عملته إليه، وأمرت محمداً بأن يشرح له ويخبره بأنني أقدّم الهدايا ولا أتقبّلها.

وقد أعدت له هديته، إلاّ أن شيخ صانور لم يتردد في أخذها، فقد سحب منديله مرّة أخرى، ووضع فيها قطعته النقدية، وربط عليها كما كانت من قبل، ولم نسمع شيئاً عنها بعد ذلك. ومنذ تلك اللحظة لم يفكر في شيء إلاّ أن يغادرنا ويتركنا نتناول فطورنا وحدنا. وبينما كان يهمّ بركوب فرسه خطرت له فكرة حسنة، فقال يخاطب محمداً: "حسناً، وأنا كذلك أودّ بأن يحتفظ هذا الرجل الفرنسي بشيء يذكّره باجتماعنا هذا، وأنا أقدّم له فرسي، أخبره بأنّها أصبحت له" وقد كانت فرسه هرمة تشبه فرس دون كيشوت (Old Rosinante) ممّا يجب الحذر من كلّ عضو من أعضائها. وبالطبع رفضت هذا العرض أيضاً. وما إن تخلصنا من هذا الزائر الذي قفل راجعاً إلى صانور يعدو على فرسه عدواً حتى رجعنا إلى تناول فطورنا، وبينما كنّا نستمتع بوجبتنا، قام سائسو خيولنا –بحكمتهم المعتادة- بفكّ الألجمة عن الخيول وإطلاقها كي ترعى على حرّيتها، إنها فكرة بديعة كما سنرى فيما بعد.

كانت المدّة التي توقفنا بها حتى الآن ساعتين طويلتين، وما زالت نابلس على مسافة بعيدة منّا، وقد آن الأوان لاستئناف السير، ولكن ما زالت هناك صعوبة واحدة صغيرة، وذلك أنّ بعض خيولنا التي استساغت بشكل مفرط مراعي صانور أخذت تمارس كلّ أنواع القفز عند محاولة الإمساك بها مرّة أخرى وأخذت تعدو نحو جبع.

وفي طريق عودته من نابلس إلى جنين يصف وصوله إلى جبع وصانور في 26 شباط 1851 قائلاً[1]:

ولم أتذكر قطّ بساتين أكثر جمالاً من تلك التي تتخلل الطريق إلى جبع، وطوال الطريق كنا نشاهد جدولاً رقيقاً يحاذي الطريق ويروي الحقول والبساتين المحيطة. وقد بدت الخضار يانعة والأزهار الجميلة تتفتح على جانبي الطريق، وكان من صور الفضول التي ظهرت من بعضنا في هذه الطريق، أن الراهب الذي كان معنا كان يجعلنا في تذمّر دائم بسبب شغفه بقطف النباتات وإحضارها لنا وذلك عندما كنّا نترجل عن خيولنا على التلال المزروعة بأشجار الزيتون حيث تقع قرية جبع، زنابق بديعة ذات زهور خضراء، ولكن مما يسبب النكد البالغ أنه لم يكن بإمكانه أن يحصل على بصيلات الزنابق.

وبينما كنا ننتظر إعداد فطورنا قمنا بجمع مجموعة الحشرات المختبئة في كل زهرة من زهرات شقائق النعمان. وما كدنا نتناول اللقمة الأولى بشقّ الأنفس، حتى نهض الراهب – ولم يعد يتمالك نفسه لفترة أطول، حيث انتزع قطعة من الخبز وبيضتين مسلوقتين،

(1) 2: 301 – 305

وطلب منّا أن ننتظره لمدة نصف ساعة فقط، وامتطى فرسه مرّة أخرى وعاد للبحث عن بصيلات الزنابق ليضيفها إن أمكن إلى العيّنات التي جمعها. ولم يكن لدينا أي فكرة بأنه سيبتعد عنّا راجعاً نحو ميلين، ولكننا عرفنا ذلك من عدم الصبر الذي جرت إدانتنا من أجله في انتظار ذلك العالم النباتي المتحمس.

وقد بدا لنا من المقدّر بأنّ اسم جبع هو دائماً مرتبط بذكرى النحس ضدّ الراهب سيء الحظ.

وبعد غياب أكثر من ساعة عاد والتحق بنا في الوقت الذي بدأنا فيه نعاني من بعض القلق حول سبب تأخره غير المفهوم. وبينما كنّا نهيّء ماتيو للذهاب للبحث عن المفقود، ظهر لنا ثانية، وهو يتوهج بنشوة لأنه حصل على بعض البصيلات. ثمّ أسرعنا إلى امتطاء خيولنا من أجل النزول إلى وادي صانور.

إنّ جبع –بلا أدنى شكّ– مكان قديم جداً، حيث أنّ الصخور التي تظهر في أعلى القرية من التلّة الخضراء الجميلة حيث تقع القرية، محفورٌ فيها كهوف لدفن الموتى، وأنّ أي مقبرة من هذا النوع هي دليل على وجود مدينة سابقة في هذه البقعة. أيّ مدينة يمكن أن تكون هذه؟ إنّ الإجابة عن هذا السؤال مستحيلة.

يتحدث جوزيفوس عن جبع التي كانت بجوار جبل الكرمل، وهذه لا يمكن أن تكون هي نفسها. ويذكر ستيفنس (Stephens) في كتابه (Ethnicals) جبع مدينة في الجليل. وهذا يمكن أن يكون صحيحاً. وفيما يتعلق بالأولى يقول جوزيفوس، في سيرة حياته، (24) بأنّ بيسارا (Besara) على تخوم منطقة بطليموس وعلى مسافة عشرين مقياساً من جبع. وهناك جبع أخرى ذكرها النبي زكرياء، وكانت بلدة صغيرة تبعد عن قيسارية ستة عشر ميلاً وتقع بجوار سهل مجدّو الكبير؛ ومن الواضح أن هذه جبع التي ذكرها جوزيفوس وليست جبع التي نحن فيها الآن. وأخيراً فإنّ البلدة التي كانت فيها قبيلة بنيامين كانت تحمل هذا الاسم (جبع) ولكنها كانت تقع على الحدود الشمالية لقبيلة جودا (Judah) حيث يقال: من جبع إلى بئر السبع، ولذلك فإنها لا يمكن أن تكون جبع التي نحن فيها الآن. وعلى الإجمال فإنه لم يبقَ أيّ موضع معروف في الكتابات القديمة، يمكن تشخيصه بوضوح على أنه جبع الحديثة، إنه من المؤكّد أنها قد حلّت محلّ مدينة قديمة.

وما إن وصلنا إلى أسفل قرية صانور حتى وجدنا الأرض سبخة جدّاً، ممّا دفعنا إلى الانعطاف شمالاً بأقصى سرعة ممكنة. واستناداً إلى المعلومات التي حصلنا عليها من محمد في رحلتنا الأولى فإنّ هذا الوادي يشكّل أمام صانور بحيرة ضخمة، رغم أنها من المياه

السطحية لكنها عميقة إلى الدرجة التي تجعلها غير ممكنة الخوض. ولذلك مررنا من خلف صانور ووصلنا في الحال إلى جنين للمرّة الثانية.



(21)

رحلة فان دي فيلدي في سنتي 1851و 1852 إلى سوريا وفلسطين



رحلة فان دي فيلدي[1]
إلى سوريا وفلسطين في سنتي 1851و 1852[2]

يقول المؤلف في قطعة من رسالته المؤرّخة في 7 آذار 1852[3]:

أمّا بيثوليا (Bethulia)، فإنّ هناك أدلّة كافية على أنّ تلك البلدة لا تبعد كثيراً عن دوثان (Dothan)[4] ، ولكن وبداعي البحث عن الاسم الذي تمّ نسيانه، فإنّ من الصعب القطع بأي شيء حول هذه النقطة بالذات.

وقد اعتقد بعض الرحّالة أنها صانور الحالية التي تقع بين التلال على مسافة تزيد قليلاً عن نصف ساعة إلى الجنوب الشرقي من دوثان. ومن خلال الطريق التي مررتُ بها لم يكن بالإمكان مشاهدتها من أي مكان.

وبالقرب من هذه القرية تقف آثار قلعة قديمة على قمة منحدر صخري شاهق، وقد أكدّ الدكتور روبنسون (Dr. Robinson) أنّ هذه الآثار تعود إلى الحقبة العربية، ويرى أنّ صانور التي تبعد سبعة أميال عن جنين لا يمكن أن تعدّ خطّاً دفاعياً عن التلال الجنوبية القريبة. على أنّه لا ينبغي أن ننسى أنه عندما مرّ الرحّالة المتعلم[5] بالقرب من هذه القرية فإنه رأى الآثار على المرتفعات من بُعد، ولم يكن على اطلاع بما يجاور دوثان من ناحية أخرى أو ما على الجهة الجنوبية الغربية من التلال.

ويذكر الدكتور روبنسون نفسه أن صانور كانت في ما مضى منيعة وذات شأن، يؤكد ذلك صمودها أمام الحصار الفاشل لمدة شهرين الذي فرضه عليها أحمد باشا الجزار أمير عكا عندما قام بمهاجمة أحد شيوخها المستقلّين الذي كان يتحصّن بين استحكاماتها، بينما احتاجت القوات المشتركة لعبد الله باشا والأمير بشير أمير لبنان إلى أربعة أشهر لإرغام صانور على الرضوخ.

---

(1) رحالة وباحث كان ضابطاً في البحرية الألمانية، ونشر ستّ خرائط لفلسطين بالإضافة إلى الكتاب الذي يصف فيه رحلته. بدأ الرحلة من باريس إلى مرسيليا ثم إلى بيروت في شهر تشرين الأول 1851، ووصف أحداث الرحلة على صورة رسائل موجهة إلى أحد أصدقائه.

(2) C.W.M. Van De Velde Narrative of A Journey through Syria and Palestine in 1851 and 1852, 2 vols., ed. William Blackwood and Sons, Edinburgh and London, 1854.
وهو مترجم إلى الإنجليزية بإشراف المؤلف.

(3) رحلة فان دي فيلدي 1: 366– 368.

(4) دوثان هي عرّابة حالياً، وتقع إلى الجنوب الغربي من مدينة جنين.

(5) يشير بذلك إلى الدكتور روبنسون من باب السخرية، وقد أوردنا رحلته سابقاً.

إنّ التحصينات اليهودية القديمة قد اختفت وأقيمت مكانها تحصينات من العصور الوسطى ممّا أدى إلى إزالتها وهدمها، وإننا نجد هذه الحالة في سائر أرجاء فلسطين. وبدون معلومات أساسية تؤكد لنا عدم وجود حجارة رباعية الزوايا تعود للحقبة اليهودية في تلك الربوة الشاهقة، فإنّ مشاهدة الدكتور روبنسون لها عن بُعد تبقى ليس لها أي مصداقية.

وإنّ ما يضيفه الرحّالة المتعلّم في إحدى ملاحظاته من أنّ صانور لم تكن تحرس أيّاً من الممرّات الجبلية فإنه يناقض نفسه بنفسه عندما يذكر بأنّ هذه الطريق المؤدية إلى جنين كانت تمرّ بانتظام عبر وادٍ ضيّق ينفتح على مرج ابن عامر.

وعندما قمتُ بجمع أوصاف موقع بيثوليا في كتاب Judith[1]، فقد أدى ذلك إلى اقتناعي بأنّ قلعة صانور الأثرية هي بيثوليا.

ففي الفصل الثالث/ الفقرة (10) ما نصّه "حشد هولوفيرنس (Holofernes) جيشه بين بيسان وجبع". وهذان الموضعان ما زالا يحملان الأسماء نفسها وأن الوادي العريض بين جلبوع (Gilboa) وجبال نابلس (Samaria) يبدو لي أنه يمثل المكان الذي كان فيه معسكر القائد الأشوري.

وفي الفصل السابع/ الفقرة (3) أنّه أقام في الوادي بالقرب من عين بيثوليا. وحسب ما ورد في الفقرة (13) فإنّ هذه هي العين الوحيدة التي حصل منها المحاصَرون على إمداداتهم من المياه. وتبعاً للفصل الثاني عشر / الفقرة (7)، فإنّ Judith ذهبت إلى هذه العين للصلاة مساءً قبل أن تذهب إلى معسكر هولوفيرنس.

إنّ المناطق المحيطة بدوثان وموقع المعسكر بين جبع وبيسان وكذلك (Chobai)، الفصل الخامس عشر/ الفقرة (4،5) حالياً قباطية، في منتصف الطريق بين صانور وجنين، يبدو لي أنها المكان الذي يمكن تحديده لبيثوليا، بينما الوادي الذي يقوم فيه هذا الحصن الصخري، والعين التي في أسفل التلّة، تتفق كثيراً مع رؤية كتاب Apocryphal، لتترك كثيراًمن الشكّ فيما يتعلّق بهذا التحديد.

---

(1) كتاب جوديث هو جزء من العهد القديم لدى الروم الكاثوليك والأرثوذكس الشرقيين، لكنه تمّ استبعاده من قبل اليهود والبروتستانت. وفيه معلومات تاريخيه كثيرة. وقد ورد في هذا الكتاب الذي سمّي باسمها أن جوديث كانت أرملة يهودية جميلة وجريئة، وأنه أزعجها عدم إقدام أبناء شعبها على مواجهة الغزو الأشوري، فذهبت بنفسها مع جاريتها إلى معسكر هولوفيرنس القائد الآشوري، ووعدته بتقديم معلومات عن بني إسرائيل، حتى فازت بالحظوة لديه، ولما وثق بها دخلت عليه ذات ليلة وهو نائم بعد سكره، فقطعت رأسه، وحملته إلى رجال قومها الخائفين، وبذلك تكون قد حمت قومها. ويحاجج فان دي فيلدي بأنّ هذه الحادثة قد وقعت بالقرب من صانور وأن جوديث صلّت عند عين صانور قبل أن تتوجه إلى القائد الآشوري. كما يحاجج بأنّ بيثوليا التي تنتمي إليها جوديث هي صانور الحالية، وينتقد الدكتور روبنسون الذي يرى خلاف ذلك انتقاداً شديداً.

ولابدّ في النهاية أن أضيف، بأنّ هذا الرأي، يعارض بالجملة ما أورده ريتر Ritter العظيم[1] (Great) في كتابه (Erdkunde) (Vol. 15, p 423- 426) حول بيثوليا، حيث اعتمد على ما وجده في رحلات القنصل البروسي المجدّ السيّد إف. جي. شولتز (F.G.Schultz). ولو أنّ السيّد شولتز صحبني في ذلك اليوم الذي مررت فيه بدوثان، لما تمسّك برأيه حول بيت إلفا (Beit-ilfa) إلى الشمال الشرقي من جبال جلبوع (Gilboa) ولما حدّد موقع بيثوليا في تلك الآثار[2].

ويقول في موضع آخر في وصف هذه الطريق (ص272):" إنّ آثار السامرة تبعد مسافة ساعتين عن الطريق القادمة من نابلس، وبعد ذلك فإنّ هناك خيارين للتوجّه إلى جنين: إمّا عن طريق صانور، وإمّا عن طريق تلّ دوثان (عرّابة) ثم برقين".

ويضيف أيضاً (ص 272): "إنّ طلب خيّال مرافق من حاكم نابلس يتطلب منك أن تذكر أسماء الأماكن التي ستزورها بشكل دقيق، وكذلك أن تحمل رسائل موجّهة إلى شيوخ تلك القرى التي ستقضي بها ليلتك أو التي تبحث فيها عن بعض الخدمات الضرورية. وفي بيسان تنتهي حدود حكم نابلس، ويتبع هذا المكان لمتسلّم جنين".

وفي تعريفه بمدينة (بيثوليا Bethulia) يقول (ص 298): "بلدة حصينة بشكل قويّ تقع على تلّة بجانب دوثان، وكانت هناك عين ماء عند الحافة السفلى للتلّة، ويرى رومر (V. Raumer) بأنّها هي صانور الحاليّة الواقعة بين جنين وسبسطية. وقد أكّد اكتشاف دوثان هذا الرأي".

---

(1) أعتقد أن وصف ريتر بالعظيم (The Great) هو من باب السخرية أيضاً مثل وصف الدكتور روبنسون بالمتعلّم.

(2) وفي كتابه "Memoir. To accompany the map of the Holy Land مذكّرة كي تصطحب معك خارطة للأرض المقدسة"، يذكر فان دي فيلدي صانور غير مرّة، فيقول في حديثه عن الطريق من جنين إلى نابلس عبر قباطية فصانور فسبسطية 235) "إنّ المنحدر (من قباطية) إلى السهل الخصب الذي يقال له مرج الغرق قصير المسافة، ولكنه أكثر انحداراً من الطريق الصاعدة من جنين، وهذا المرج، كما يظهر من اسمه، تغطيه مياه الأمطار في فصل الشتاء، التي تتجمع من المنحدرات الجبلية المحيطة، دون أن يكون لها أي منفذ. وبعد اجتياز قلعة صانور التي تحتل موقعاً منيعاً ولكنّها الآن مدمّرة، وعين الماء التي تقع في القاعدة الجنوبية للصخرة التي تجثم عليها، فإنّ الطريق تصعد إلى جبع، وهي قرية عظيمة فيها برجٌ وآثار قديمة".



(22)

رحلة آرثر ستانلي 1852- 1853

سيناء وفلسطين في إطار تاريخي



رحلة آرثر ستانلي 1852- 1853[1]:
سيناء وفلسطين في إطار تاريخيّ [2]

يقول في وصف صانور لدى وصوله إليها من سبسطية[3]:

ثمّ نجد أنفسنا أمام سهل فسيحٌ مفتوح، وهو ما يدعى سهل صانور، الذي تبرز من وسطه عدة تلال منحدرة، حيث توجد قمة هي الأكثر ارتفاعاً وإشرافاً تتوّجها قلعة صانور القويّة.

وعبر هذه الممّرات التي تحرسها في الغالب قلاعٌ تمرّ خطوط الاتصال بين الشمال والجنوب. وفي هذه الممّرات كان الغزاة القادمون من الشمال يردّون على أعقابهم دائماً...

إنّ الأهمية الرئيسية لهذه المنطقة هي كونها تتحكم في الطرق إلى مرج ابن عامر، وهذه المناطق ليست معروفة كثيراً، وعند الحديث عنها فإنّ غالبية الرحّالة يضطرون إلى استخلاص نتائج من تلك الطريق المارّة من سبسطية عبر صانور إلى جنين.



(1) يذكر ستانلي أنه قام برحلته في شتاء 1852 وربيع 1853 مع ثلاثةٍ من أصدقائه، ولد آرثر سنة 1815 في بريطانيا ودرس في أكسفورد سنة 1833، وفي سنة 1840 قام برحلة إلى سويسرا وإيطاليا واليونان وصقلية، ثمّ رجع إلى أكسفورد ليعيّن كاهناً، ثمّ عيّن في عدة مناصب دينية وأكاديمية، وقام برحلته إلى سيناء وفلسطين في إطار واجباته الدينية والأكاديمية، وتوفي سنة 1881 بعد وفاة زوجته بخمس سنوات.

(2) Arthur Penrhyn Stanley, Sinai and Palestine in Connection with their History, Redfield, New York, 1857.

(3) ص 243- 244.



(23)

رحلة جيمس فِنْ 1853- 1856

أوقات مثيرة أو تدوينات من التاريخ القنصلي للقدس



رحلة جيمس فِنّ[1] 1853 - 1856[2]:
أوقات مثيرة أو تدوينات من التاريخ القنصلي للقدس

وقد تحدّث فِنّ عن صانور وآل جرّار في عدّة مواضع من كتابه وفي عدّة سياقات، ففي حديثه عن الصراعات العائلية في جبل نابلس يقول[3]:

"كان جبل نابلس يُحكم بالتناوب بين قائمقامين يجري اختيارهما من عائلتين فقط، وكلاهما أصله من المدينة ذاتها، وكان الباشا يفعل ذلك مدفوعاً بضرورة التناوب بين هاتين العائلتين، وهما:

1. عائلة طوقان التي تتحالف معها عائلة جرّار التي تنزع نزعة محافظة قديمة في السياسات المحلية.
2. عبد الهادي التي تتحالف معها عائلات قاسم الأحمد والجيوسي والريّان..(وقد كان ينظر إلى طوقان وحلفائهم أنهم يمثلون حزب الأتراك بينما كان عبد الهادي يمثلون المدرسة المصرية في التقدم).

ويتابع في السياق نفسه وفي مكان آخر قوله عن آل جرّار[4]:

"وكان لكل حزبٍ من هذين الحزبين الكبيرين أنصار ومساعدون كثر، وقد كان القتال يندلع أحياناً بين الفئات الثانوية المناصرة لهذا الحزب أو ذاك ثم يلحق بها البقية تدريجيّاً. وقد وقع مثل ذلك سنة 1848 عندما حدث قتال بين فريقين من قبيلة جرّار، حيث أدّى ذلك لاحقاً إلى انضمام كلّ فريق منهما إلى طرفٍ من الطرفين المتصارعين، ووقف أنصار كلّ فريق معه في ذلك الصراع".

---

(1) المؤلف جيمس فنّ، كان القنصل البريطاني لملكة بريطانيا في القدس وفلسطين من سنة 1845 - 1869 وله عدّة مؤلفات منها هذه الرحلة، ومنها كتاب: Byeways in Palestine. أما يومياته فقد قامت أرملته بإعدادها وتحريرها.

(2) James Finn, M.R.A.S, Stirring Times, or Records from Jerusalem Consular Chronicles of 1853 to 1856 (2 Vols.), London, C.Degan Paul & Co. 1878 أيّام مثيرة، أو تدوينات من التأريخ القنصلي للقدس.

(3) 1: 239.

(4) نفسه 1: 240.

ويقول في موضع آخر[1]:

"وفي سنة 1854 كانت حالة الفرقاء في نابلس على النحو التالي:

1. طوقان وحلفاؤهم:

1. أولاد البرقاوي، وكانوا شيوخاً على ثلث وادي الشعير.
2. عائلة صادق، في المجدل وبلاد جماعين وكانوا يحكمون أكثر من اثنتين وعشرية قرية، وكان يحكمها موسى أبو بكر.
3. عائلة جرّار في الشرقاويات، وهي (18) قرية (وكان نصف هذه العشيرة منضماً إلى الفريق المضادّ).... الخ.

وفي حديثه عن الحملة العسكرية التركية سنة 1852 على جبل حوران، يذكر من كان مع الحملة من شيوخ جبل نابلس قائلاً:

"وممّن شاهدته مع مصطفى باشا في فرقة المشاة الشيخ أحمد جرّار[2] شيخ جبع شديد التعصّب، الذي أخذ يهدر حال دخولي بيته قبل سنتين قائلاً: إذن فإن السلطان يسلّم بلاد المسلمين قطعة قطعة للنصارى".

وفي إشارته إلى شهرة صانور بالممرات الصخرية المعّقدة يتحدث عن قرية تدعى سرين Serin في جنوب لبنان قائلاً[3]:

"حيث الصخور مثقبة بالممرات المعقدة أكثر بكثير من تلك التي في صانور، بالقرب من نابلس".

أمّا الوصف الأهمّ في هذه الرحلة فهي زيارة فِنّ نفسه لقريتي جبع وصانور سنة 1854 قادماً من نابلس ومعه الخوري جون بوين John Bowen يقول[4]:

"وبعد مغادرتنا نابلس باتجاه الشمال مروراً بسفح جبل عيبال، وبعد نحو ساعة من الركوب الصعب وصلنا إلى جبع، معقل آل جرّار (انظر وصف عائلات نابلس في الفصل العاشر)، وهنا يبدأ سَهْلٌ ضيّقٌ في الرحلة باتجاه الشمال، حيث تظهر في منتصف الطريق وبشكل مباشر تلّةٌ في الأمام تظهر من مسافة تعترض الطريق لمسافة أبعد، وعلى هذه التلّة تقع قرية صانور المهمّة".

---

(1) حاشية 1: 242.

(2) هو الشيخ أحمد آغا بن عبد الله آغا اليوسف الجرّار.

(3) نفسه 1: 294.

(4) نفسه 2: 154 – 156.

وهذا الاسم ليست معروفاً في أي من مصادر العصور القديمة التي لـدينا ولا حتـى في كتب التاريخ المختصة بالعصور الوسطى، ولكنها مـشهورة في الحـروب العربيـة المعـاصرة، وذلك بسبب حصارين بالمدفعية تعرضت لهما القرية، الأول قاده أحمد باشا الجزار أمير عكـا، والثاني قاده أمير جبل لبنان الأمير بشير لمساعدة عبـد الله باشـا زعـيم عكـا في سـنة 1830، وهذان الحصاران يمثلان ذكرى سيئة السمعة في أذهان الناس.

ومازالت قذائف المدفعية وشظايا القذائف (وبعض القذائف ما زالت كاملة على حالهـا) ما زالت تُشاهد في الحقول المحيطة. وقبل سنة 1850 بمدة أصبح هذا المكان مهجوراً لفـترة طويلة، وقد أعيد بناء حوش مزرٍ أو حوشين خارج خرائب قلعة صانور، وفي تلك السنة بتُّ في جبع، وفي حوار مع الشيخ أحمد جرّار عن تلك الأيـام الماضـية، أخـبرني بـأنّ تلّـة صـانور تخترقها ممرّات سريّة، وهي الآن على أية حال معظمها مغلق بسبب الردم، وأخبرني أنـه فـوق مدخل أحد هذه السراديب كان يُشاهد تمثال نسر منحوت من الصخر.

وقد قفز إلى ذهني أنّ هذه القناطر أو العقود تحت الأرضيّة وتمثال النسر ليست من البناء العربيّ، وأخذت بحماسة أسأله عن مصير هذا النسر. فأجاب بأنـه عنـدما كـان صـغيراً قـام الناس بتحطيم النسر إلى ذرّات لأنهم لا يرغبون بالاحتفاظ بأي صورة لأيّ كائن حيّ.

وفي رحلة لاحقة في فلسطين بتُّ ليلة في صانور، فوجدت أن بيوتاً كثيرة قد تـمّ بناؤهـا، وتحرّيت بشكل أوسع عن هذه الموضوعات من بعض النـاس الـذين اسـتقرّوا هنـاك، وقـد أكدوا لنا وجود الممرّات المغلقة، ولكنهم أقسموا بأنّ التمثال لم يكـن لنـسر بـل تمثـال أسـد، ومن هنا استخلصت في ذهني أنه ربما كان التمثال لكليهما – أسداً ذا أجنحة- وأنه ربـما كـان أثراً مقدساً لأحد الفينيسين (أهل البندقية) أو أحد المالكين الصليبيّين.

إنّ موقع هذه التلّة مهمّ للغاية، فمن الناحية العـسكرية تقـع في منتـصف الطريـق عـلى امتداد سهل ضيّق حيث تمرّ الطريق الوحيدة من الجليل إلى القدس، إلاّ إذا اختار المـسافر أن يسلك أيّاً من الطرق الالتفافية غير المباشرة العديدة. وعلى أية حال فإنّ المكان يمكن التحكّم فيه بسهولة بالمدفعية الحديثة من التلال القريبة على جانبي الطريق.

× × ×

وفي طريق عودته مع صديقه الخوري جون بوين من النـاصرة إلى نـابلس فالقـدس بعـد عيد الميلاد من سنة 1854 ولدى اقترابه من صانور، وصف السيّد فِـنّ مظـاهر المـصادمات

التي وقعت في قرى نابلس بين أطراف الصراع المختلفة. يقول[1]:

وقبيل وصولنا إلى صانور التقينا مع مجموعة مؤلفة من نحو سبعين رجلاً مسلّحاً، وكانوا يغنّون أغنية حرب لدى عودتهم من إحدى العمليات الأخيرة. وقد أخبروني بأنه تمّ استدعاؤهم من قبل قادتهم من أجل التوجُّه نحو بُرْقة بالقرب من سبسطية، لكنهم الآن عائدون إلى بيوتهم لأنهم علموا بأنّ تسوية بين الطرفين المتخاصمين يجري ترتيبها ممّا يؤدي إلى عدم الحاجة إلى خدماتهم. وبعد ذلك التقينا بمجموعات أخرى ولكن أصغر تسير خلف المجموعة الرئيسية من غير نظام عائدين من غير أن تتاح لهم فرصة قدح زناد البارود.

وكان يظهر على جميع هؤلاء الرجال الملامح المميزة لفلاّحي جبل نابلس، التعبيرات القاسية والحماسية الخادعة، وقد لبسوا الطرابيش على رؤوسهم، وهي أطول من تلك التي تلبس عند جيرانهم في الجنوب، وقد أمالوها إلى جهة واحدة من رؤوسهم. وكانوا يمشون بزهو غير منضبط في مشيتهم وبمظهر عابث بشكل عام.

وفي طريقنا باتجاه برقة، وقبل صعود التلّة إلى الفندقومية أخبرتنا بعض النساء اللواتي كنّ يقمن بجني ثمار الزيتون بأنّ العُربان[2] قد خرجوا لمساعدة دار جرّار وأنّهم قد سبقوكم في الطريق....

وبعد نحو مائتي ياردة وفي إحدى منعطفات الطريق رأينا بعض دوابّ العربان مربوطة بأوتاد، ورأينا رماحاً تلمع مكوّمة بشكل عنقودي، ورأينا رمحاً آخر ملقى في الطريق كأنه إشارة إلى أن تجاوز هذه الطريق ممنوع، وقريباً من ذلك وتحت إحدى الأشجار كان يدور نقاش بين عدد من الشيوخ يشارك فيه شيوخ القرية وحلفاؤهم من البدو. ولا شك أنّ ذلك كان للتفاوض حول التسوية التي سمعنا عنها من مجموعة المسلحين الذين التقيناهم في الطريق. ولمّا كان الرمح الذي يعترض طريقنا بمثابة علامة على الحدود لا يستطيع أن يحول بيننا وبين مواصلة السير، فقد مضيت ومن معي وقفزت عن الرمح، وفي الوقت نفسه أعلمتهم من أكون.

وعند ذلك تقدّم بعض آل جرّار نحوي ونصحني بألاّ أمضي قدماً، وبالفعل لاحظنا مجموعة من الرجال أمامنا مباشرة خلف أحد المتاريس، حيث كانت بنادقهم مصوّبة نحونا. وقد تقدمت بهدوء وورائي رفاقي ودخلت بذلك قرية برقة، حيث وجدنا جميع الأبواب والشبابيك موصدة، وكلّ زاوية من زوايا القرية محتلّة بنقطة عسكرية فيها ثلاثة

---

(1) 2: 168 - 171.

(2) إشارة إلى بني صخر.

رجال مسلّحين.

وقد قال لي أحد الشباب في برقة بأنّ هذا الوضع نشأ بسبب زواج إلى جانب أن نصف سكان برقة كانوا من فريق آل جرّار والنصف الآخر من فريق آل عبد الهادي، وأما بنو صخر فكانوا وسطاء.

ثمّ يتابع في موضع لاحق[1]:

وطوال طريقنا إلى نابلس التقينا بمجموعات صغيرة كانت تتقدم نحو ساحة الحرب، وبالقرب من تلك المدينة كان الجميع يتقصّى الأخبار.

"لقد كان من واجبنا أن نطلع على وجه السرعة حاكم نابلس على المستجدّات التي شاهدناها بأمّ أعيننا (وبالمناسبة فإنّ حاكم نابلس هذا كان شخصية مهمّة، وهو الذي رأيناه في تموز الماضي مع مرافقي الباش بُزُقْ وقارعي الطبول بالقرب من صانور، خلال جولته لإعادة الأمور إلى نصابها، وكان من حزب عبد الهادي المنافس لبيت طوقان).

ويتابع في موضع آخر[2]:

وقد ازداد الوضع اضطراباً في نابلس خلال السنة التالية، حتى إنه في شهر أيار 1855 أرسل حاكم تركي إلى تلك الناحية، وكان عليه أن يحارب في طريقه حزب طوقان إلى أن يصل إلى مقرّ الحكومة في نابلس. وقد أدى ذلك إلى مقتل عدة أشخاص خلال ذلك.

لقد سيطر على الوضع ولكن لفترة قصيرة، ثمّ عادت نابلس إلى الفوضى السابقة. وقد تمّ حصر عدد ضحايا هذه الصراعات في نابلس خلال سنتي 1854و 1855 فبلغ نحو 300- 400 قتيل من أجل السيادة على جبل نابلس.

ثمّ يقول في مكان لاحق[3]:

وفي الثاني عشر من نيسان 1855 جاءت الأنباء بأن الاشتباكات قد تجدّدت في السهول الغربية لمنطقة نابلس بين حزبي طوقان وجرّار وشارك بها العربان. وقد أدّت الفوضى الناجمة عن ذلك إلى أن يعلن الباشا حالة التأهّب. وفي منتصف الليل دعا جميع القناصل إلى اجتماع تشاوري حول الأوضاع في تلك الناحية المضطربة.

وفي الليلة التالية عقد الباشا مشاورات أخرى مع القنصل الفرنسي والقنصل الإنجليزي، وقد أرسل سعادته رسالة مع أوامر خطيّة إلى حاكم نابلس محمود بك عبد

---

(1) 2: 172.

(2) 2: 173

(3) 2: 434- 435.

الهادي بأن يعتقل قادة الفتنة والجريمة ويرسل بهم إلى القدس، وقد حملت هذه الرسالة والأوامر إلى نابلس خلال الليل. وفي صباح اليوم التالي الرابع عشر من نيسان عقدت اتفاقية سلام وأعلن عنها بواسطة مدافع القلعة[1].

---

(1) وفي التقرير الذي بعث به جيمس فن إلى الكونت دي ملمسبوري في 14 نيسان 1859 يقول عن مشاهداته في نابلس: "أتشرّف فانبئكم أنه بينا أنا عائد حديثاً إلى القدس مررت في القضاء المعروف بجبل نابلس، فالتقيت بحملة عسكريّة تتهيأ لمهاجمة العربة (عرّابة) وهي معقل أسرة عبد الهادي. وقوام هذه التجريدة 400 من المشاة و200 فارس نظامي و 80 من حملة البنادق المضلعة معها مدفعان سهليان من الشبه (البرونز) عيارهما كبير عدا الفلاحين الذين انضموا إليها من حزب طوقان وجرّار. وكان الجيش معسكراً بنظام على هضبة تبعد ثلاثة أميال من جنوبي العربة، وهذه القرية قد طالما كانت منبع الشرور التي نزلت بالناحية المجاورة، وقد سبق لي أن وصفت لكم أسرة عبد الهادي في رسالاتي عن هذه الناحية. فأموالهم هي في البلدة المذكورة ورجالهم الأشدّاء أيضاً بما فيهم محمد حسين قائدهم وهو الذي فر منذ سنوات من سجنه في طرابزون. وقد قال لي الأمير آلاي والبكباشي اللذان يقودان هذه التجريدة أن الغاية الرئيسية منها ترمي إلى إجابة مطالبي المتكررة والقبض على مثيري فتن سنة، 1856 على أني لم أكن لأشير بمثل هذه الوسائل، كما أني لا أعتقد بتحقق مطالبي بواسطة هذه التجريدة، ولو نجحت ممّا لا أنتظره ومع ذلك فإن لدى الحكومة العسكرية ذرائع عديدة عسكريّة تؤدي إلى معاقبة أسرة عبد الهادي".

وفي تقرير آخر بتاريخ 26 نيسان 1859 يقول:" أتشرف فأخبركم أن البعثة العسكرية المذكورة في رسالتي المنفذة في 14 الجاري قد هاجمت في 17 منه بلدة العربة الكبيرة فلحق بأسرة عبد الهادي العاصية خسائر عظيمة في حين أن خسائر الحكومة كانت قليلة. إن كل زعماء هذه الأسرة قُتلوا أو تفرق شملهم، وجعلت البلدة قيد النهب مدة ساعتين، ودمرت بيوتها من بنائين جيء بهم لهذه الغاية ولم يبقَ سوى بعض البيوت لإيواء الجنود. ولم يسبق للحكومة التركية بعد استعادتها الحكم في سنة 1840 أن استعملت هذه الشدة وعليه لا تُعذر الآن إذا أبت انصافنا.

انظر مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، من سنة 1840 إلى سنة 1910، المجلد الأول، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، دار نظير عبود. (ص 336، 338).

(24)

رحلة جيمس فنْ 1853- 1856

طرق ثانوية في فلسطين



رحلة جيمس فِنّ 1855[1]:
طرق ثانوية في فلسطين

في السادس من تشرين الثاني وفي وصف انتقاله من الناصرة إلى صانور يقول[2]:

"وفي اليوم التالي، اجتزنا مرج ابن عامر نحو جنين وصانور حيث بتنا هناك، وسلكنا طريقاً جديداً لم يسلكه الأوروبيون من قبل، فبعد جبع ذهبنا إلى سهل شارون مارّين من بين بساتين الزيتون الواسعة لقرية الفندقومية (وتعني باليونانية Penta أي خمس و comai أي قرى) الواقعة بين yaero (خربة)، وعجّة ورامين وعطّارة مع قرى أخرى في حالة جيّدة. ثمّ رأينا قرية كفر راعي بوضوح على مسافة باتجاه الغرب وعدداً كبيراً من القرى بجانبها".

ونظراً لأهمية موقع صانور في نظر جيمس فِنّ، فقد اتخذها نقطة ارتكاز لقياس المسافات بينها وبين القرى والمدن الأخرى التي زارها، فعند وصوله إلى قرية عنّابة غرباً يقول[3]:

"وكان ذلك على مسافة أربع ساعات من السير السريع من صانور".

وعند وصوله إلى مجدل يابا قريباً من قلقيلية يقول[4]:

"وهي تبعد ست ساعات ونصف الساعة من صانور".

ثمّ يقول[5]:" وقد وصلنا إلى مجدل يابا بعد تسع ساعات من خروجنا من صانور، وكانت رحلة حارّة ومتعبة".

يقول في الحديث عن رحلته من سبسطية إلى حيفا في تشرين الأول 1848[6]:

"وفي البداية سلكنا الطريق العام باتجاه الشمال، ثمّ صعدنا التلّة التي فوق برقة... ثمّ تركنا الطريق العام التي تمرّ بصانور وجنين وانعطفنا نحو السيلة".

---

(1) James Finn, Byways in Palestine, London, 1867،ويقول جيمس فنّ في مقدّمة كتابه إنّ رحلته هذه بدأها مع مجموعة من نحو اثني عشر رجلاً إنجليزياً ومعهم عدد كبير من الخدم والمترجمين والأدلاّء العرب وسائسي البغال في التاسع من أيار سنة 1855 (ص 15).

(2) ص 100.

(3) نفسه 100.

(4) نفسه 101.

(5) نفسه 101.

(6) ص 159.

وعند وصوله إلى عرّابة يقول عن زعيم عرّابة من آل عبد الهادي[1]:

"وقد أكّد لي أنه عندما سمع صوت مسدّسي عند الوصول هرع ما بين سبعمائة إلى ثمانمائة رجل إلى أسلحتهم ظانين أنّ اجتياحاً من خصومهم آل طوقان وآل جرّار قد وقع، أو أنّ القوات النظامية للباشا في القدس قد شنت هجوماً على القرية تحت ذريعة الحجر الصحيّ بسبب الكوليرا".



(1) ص 161- 162.



رحلة ويليام بيمونت في خريف سنة 1854
يوميات رحلة إلى الشرق



رحلة ويليام بيمونت سنة 1854:
يوميات رحلة إلى الشرق في خريف 1854[1]

يقول في وصف صانور في أثناء توجّهه من سبسطية إلى جنين[2]:

ويشرف على طرفها الشمالي قلعة صانور، وهي تقع على تلة عالية تبرز في وسط السهل، وتحول –وبشكل فعّال– دون محاولات اقتحامها ضدّ إرادة مالكيها. إنّ موقعها كان تحديداً شديد الانحدار ومهيباً، وقد ذكّرتني هذه القلعة بشكل قويّ جداً بواحد من الحصون الجبلية القديمة في الهند.



(1) William Beamont: A Diary of a Journey to the East in the Autumn 1854, 2 Vols., Longman, London, 1856.

(2) 2: 139.



(26)

رحلة روبرت والتر ستيوارت 1854

الخيمة و الخان: رحلة إلى سيناء و فلسطين



رحلة روبرت والتر ستيوارت 1854:
الخيمة والخان: رحلة إلى سيناء وفلسطين[1]

يصف رحلته من سبسطية إلى الناصرة مروراً بالفندقومية وجبع وصانور وجنين في 22 آذار يقول[2]:

"وفي الساعة الحادية عشرة وخمسٍ وثلاثين دقيقة مررنا عبر قرية الفندقومية، وهي التسمية العربيّة للكلمة اليونانية بنتاكوميا (Pentacomia). وبعد نصف ساعة منها وصلنا إلى وادٍ جميل يدعى جبع، كما يسمّيه المكاري الذي معنا والذي قابلناه قبل الوصول إليها بقليل عندما التقت طريقنا بالطريق الرئيسي القادم من نابلس. وهذه القرية هي جبع أخرى[3]، ولكن لا يوجد لها ذكرٌ في الكتاب المقدّس، وقد اقتبس ريلاند (Reland) من يوسيبيوس ذكره لبلدة تدعى (Gaba) تبعد ستة عشر ميلاً عن قيسارية وليست بعيدة عن المرج الكبير، وهي ما يتفّق بشكل مقبول مع موقع هذه القرية".

ويقول بعد ذلك[4]:

"وبعد اجتيازنا قرية جبع توجهنا نحو الشمال الشرقي في واد جميل أخضر حيث تنمو شقائق النعمان بكميات كبيرة. وعند نهايته العليا على مسافة نحو ميلين وعلى رأس تلّة هناك تطلّ على الوادي حتى تكاد تقترب منه، تقف بلدة صانور وتظهر بشكل جليّ من بعد، وهي ذات مكان محصن تحصيناً قوياً، على الرغم من أنّ تفحّصها عن قرب يكشف بأنّ جدرانها لم تعد بتلك القوة البالغة.

وعلى مسافة نحو نصف ساعة منها في الوادي فوجئنا كثيراً بمشاهدتنا قذيفة مدفع كبيرة ملقاة بين الأعشاب وقد علاها الصدأ، كما مررنا بقذيفة أخرى بالقياسات نفسها وبشظايا قذائف كثيرة. ولمّا رأى أحد النصارى الذي كان يسافر من نابلس بصحبة المكاري دهشتنا من هذه القذائف تطوّع فوراً لتفسير ذلك قائلاً إنّ هذه القذائف موجودة منذ أربع وعشرين سنة في هذا المكان، ولم يحاول أي شخص أن يكلّف نفسه عناء إزالتها.

(1) Robert Walter Stewart, The Tent and The Khan: a Journey to Sinai and Palestine, Edinburgh, William Oliphant and Sons, London, Hamilton, Adams and Company, 1857.

(2) ص 419.

(3) توجد جبع ثانية في القدس.

(4) ص 420.

وفي سنة 1830 قام عبد الله باشا حاكم عكا يساعده الأمير بشير أمير لبنان بمحاصرة شيخ صانور الذي أعلن الثورة على الحكم التركي. وبالرغم من أن المدافع كانت قد جُلبت لحصار البلدة بصعوبة بالغة من عكّا، إلاّ أنه (عبد الله باشا) لم يستطع الاستفادة منها كثيراً، حيث احتاج إلى ما لا يقلّ عن تسعة أشهر حسب مصادرنا لإخضاع البلدة. وقد قام الباشا بالانتقام من أهل صانور عندما قام بقطع أشجار الزيتون العائدة لهم، وبلا مبالاة شرقية خالصة، لم تزرع أشجار أخرى في مكان تلك الأشجار مرّة ثانية".

وبعد أن أورد مناقشة فان دي فيلدي لاحتمال أن تكون صانور هي بيثوليا يتحدث عن مرج الغُرُق قائلاً[1]:

"وغادرنا صانور بضع خطوات إلى اليمين دون أن ندخل أسوارها، ثمّ انحدرنا حالاً إلى مرج ممتدّ، وبعبارة أخرى، مستنقع يقال له مرج الغُرُق، وهو اسمٌ على مسمّى.

وبينما انعطفت الدوابّ التي تحمل أمتعتنا إلى اليسار بمحاذاة قاعدة التلال فقد أقنعنا الدليل الذي كان معنا بأن نسلك الممرّ الذي يقطع المرج بشكل قُطري مائل، وقد وجدنا في الحال وبسبب ذلك أن دوابنا المسكينة قد غرقت في الماء والوحل حتى حزام السرج في كلّ خطوة. وقد قطعنا ثلاثة أميال على الأقل في هذا التخبط المخيف وأقدامنا مغمورة في الماء، ونحن نتوقع في كل لحظة بأنّ الخيول سوف تنهار سريعاً من الإعياء الشديد، وذلك لأنها كانت تحتاج إلى جهد عظيم لرفع أرجلها من الوحل.

وفي فصل الصيف تجفّ مياه المرج تماماً، إنّ الماء الذي خضناه لم يكن إلاّ مياهاً سطحية تجمعت نتيجة الأمطار الأخيرة، واحتفظت بها الأرض بسبب طبيعة التربة التي فيها عنصر الألمنيوم.

وكانت هناك الكثير من طيور اللقلق تصطاد بين قصب الأعشاب الطويلة وأكوام القشّ على جانبي الطريق. وقد استغرق منّا خوض حمأة القنوط هذه ساعة كاملة إلى أن وصلنا أخيراً إلى نهايتها من جهة الشرق.

---

(1) ص 421- 422.

وفي الساعة الواحدة والنصف توقفنا لمدة نصف ساعة تحت بعض أشجار الزيتون القديمة الجميلة لتناول الغداء، ولإراحة دوابّنا المرهقة. وكانت التلال التي على يسارنا تنتشر فيها أحطاب الأشجار المقطوعة، وبينما كنّا نعبر من أماكن مليئة بالأزهار البريّة ظهر أمامنا دبّان بنيّان، ثمّ قفزا على التلّة بسرعة بمقدار ما تستطيع أرجلهما الغليظة أن تحملهما. وقد تمّ تعبئة البندقية الوحيدة التي كانت بحوزتنا، ولكنّ السادة بروين (Bruin) تهيأت لهم بداية حسنة جداً قبل أن نتنبأ بما قد يعانونه من الأذى الذى قد يتسبب عن إطلاق النار من هذه البندقية.

وبعد أن غادرنا مرج الغُرُق صعدنا ممّراً صخرياً باتجاه الشمال يمكن من قمته مشاهدة مرج ابن عامر وهضبات الجليل...



(27)

رحلة ماري إليزا روجرز سنة 1855-1857

الحياة الداخلية في فلسطين



رحلة ماري إليزا روجرز سنة 1855- 1857[1]:
الحياة الداخلية في فلسطين[2]

في أثناء توجّهها وشقيقها إلى عرّابة في شباط 1856م، أخذ يحدّثها عن نابلس قائلاً[3]:

"في الجبال المحيطة هناك أربع قوى على عداء دائم بعضها مع بعض، وهي أوّلاً آل عبد الهادي ومقرهم في عرّابة، والثانية آل جرّار الذين لهم قلعةٌ في صانور. وهاتان العائلتان جاءتا من مجتمعات فلاّحية، ولكل منهما أعداد كبيرة من الأتباع في كلّ قرية تقريباً من قرى المنطقة. والقوة الثالثة هي قبيلة طوقان التي لها تأثير كبير بين القبائل التي ترتبط معها بالنسب في الصحراء الشرقية. والرابعة آل الرّيان، وهم من أصل بدويّ، ولهم نفوذ قويّ ويتمركزون في غرب نابلس. ومن بين هذه العائلات الأربع المتصارعة يجري اختيار حاكم نابلس عادة، ويُعيّن من قبل باشا القدس.

وإذا ما عُزل الحاكم من منصبه إمّا نتيجة غضب الباشا أو عدم قدرة الحاكم على إرضاء جشع أتباع الباشا وموظّفيه، فإنّ واحداً من أبناء الحزب المنافس يهرع إلى مقرّ الحاكم، ويشتري ودّ موظفي الباشا ومستشاريه بمبالغ طائلة من الأموال والهدايا، وبالتالي فإنهم من خلال وساطتهم وتأثيرهم يستطيعون الوصول إلى الحكم. وما إن يتقلّد الحاكم الجديد منصبه حتى يأخذ في استخدام جميع الوسائل في سلطته شرعية وغير شرعية لتحصيل جميع الأموال التي دفعها رشاوى، بل زيادة عليها. ولذلك يشرع في فرض

الضرائب على الفقراء وغيرهم ممن لا يتمتع بأي حماية، وينهب دون أن يخضع للمساءلة جميع هؤلاء الذين لا يجرؤون ولا يقدرون على مقاومة سلطته، وإليه يؤول تعيين شيوخ جميع القرى في منطقة نفوذه. ويسمح لجميع من كانوا في مناصبهم خلال عهد سابقه بأن يبقوا في مناصبهم إذا قدّموا ما يكفي وما يناسب من الهدايا له عند تقلّده الحكم،

---

(1) تذكر الكاتبة أنها رافقت شقيقها في 14 حزيران 1855 الذي كان يعمل قنصلاً لبريطانيا في سوريا لأكثر من ست سنوات، وخرجت معه من لندن بعد أن قضى إجازة في بلده، ووصلا إلى الإسكندرية يوم 28 حزيران ووصلا إلى يافا في الأول من تموز. وذكرت أنه في 24 شباط 1856 وصلت رسالة من قنصل بريطانيا في القدس جيمس فن يطلب من شقيقها أن يذهب حالاً من حيفا إلى نابلس ليكتب تقريراً عن الأوضاع هناك حيث تجددت الاشتباكات بين آل عبد الهادي ومنافسيهم على الحكم، وتذكر أنها ذهبت معه إلى عرّابة وصانور ونابلس (ص213). وقد قامت الكاتبة برحلة ثانية سنة 1859 (انظر ص 44) وكذلك 1862 (انظر ص 47).

(2) Mary Eliza Rogers, Domestic Life in Palestine, Cincinnati: Jennings and Pye. New York: Eaton and Mains, 1859.

(3) ص 234– 236.

وإذا لم يفعلوا ذلك فإنّ وظائفهم تؤخذ منهم وتُسلَّمُ إلى هؤلاء الذين يقدّمون أكثر.

وقد استمر هذا الوضع لسنوات عديدة، وفي سنة 1851 قتل خمسمائة شخص وجُرح كثيرون في صدامٍ بين هذه القوى المتنافسة. وتبعاً لذلك صدر مرسوم بعدم تعيين أي واحد من هذه العائلاتِ في مناصب مهمّة في جبل نابلس.

الضرائب على الفقراء وغيرهم ممن لا يتمتع بأي حماية، وينهب دون أن يخضع للمساءلة جميع هؤلاء الذين لا يجرؤون ولا يقدرون على مقاومة سلطته، وإليه يؤول تعيين شيوخ جميع القرى في منطقة نفوذه. ويسمح لجميع من كانوا في مناصبهم خلال عهد سابقه بأن يبقوا في مناصبهم إذا قدّموا ما يكفي وما يناسب من الهدايا له عند تقلّده الحكم، وإذا لم يفعلوا ذلك فإنّ وظائفهم تؤخذ منهم وتُسلَّمُ إلى هؤلاء الذين يقدّمون أكثر.

لكنّ أخي تابع قائلاً بأنّ هذا المرسوم تمّ تجاهله عندما نجحت عائلة عبد الهادي في أن تحظى بالحكم، حيث عين محمود بك عبد الهادي حاكم نابلس الرئيسي، وعيّن صهره صالح بك حاكماً على حيفا، بينما كان محمد بك يحكم في عرّابة معقل عائلتهم.

وبسبب التمرّد الأخير الذي قام به الناس ضدّ محمود بك فإنّ الحاكم التركي العام كامل باشا حاصر نابلس بقوات كبيرة من الفرسان، ولكن بصعوبة بالغة، لأنه محاطٌ بمستشارين متآمرين ممّن لا يتورّعون عن أخذ الرشاوى وغضّ طرفهم عن أطراف الصراع.

إنّ مهمتي الآن ببساطة هي مراقبة كل شيء بعناية وكتابة تقرير إلى السيّد فنّ عن كلّ ما يجري هناك، وأن أبيّن –ما استطعت– الوضع الحقيقي للأمور دون أن يكون لي أي تدخل أو مشاركة في أيّ منها. وبهذا بإمكانك مساعدتي قليلاً عن طريق مراقبة الأوضاع في القرى بهدوء، لأنّ من المحتمل أن ننفصل عن بعضنا في عرّابة وصانور. إنّ كونكِ مرافقة لي في الرحلة سوف يشجع الناس على استقبالنا في معاقلهم عن طيب نفس وبعيداً عن أي شكّ".

وعند وصولهما إلى عرّابة تقول[1]:

"لقد أعربوا عن دهشتهم لمشاهدتنا نقوم بهذه الرحلة في مثل هذه الأوضاع المضطربة جداً في البلد، لقد أخبرونا أنه في كل يوم تقع مناوشات في المناطق المجاورة، وأن مائة وخمسين شخصاً على الأقلّ قد قتلوا في الأيام القليلة الماضية، وأنّ قطعان المواشي قد نهبت، وأنّ الجمال قد هوجمت ونهبت حمولاتُها، وأنّ معركة قد وقعت في اليوم الماضي

(1) ص 237.

بالقرب من عرّابة وأن كثيراً من الأشخاص قد لاقوا حتفهم فيها. وقد أخبرنا أبناء الحاكم وأبناء أخوته عن هذه المعركة وأنهم شاركوا فيها".

وفي الفصل الذي يحمل عنوان "من عرّابة إلى نابلس"[1] تصف الكاتبة وصولها وشقيقها إلى صانور وتصف مشاهداتها وحواراتها قائلة[2]:

" وقد تخلّى شقيقي عن الدليل الذي أرشدنا إلى عرّابة، وقرّر بأن نذهب –إلى صانور– بدون أيّ دليل، لأنّ ذلك يجعلنا أكثر أماناً، لأنّ وجود أي شخص معنا له أي علاقة بالمناوشات الأخيرة أو ينتمي إلى أي من الأطراف المتصارعة قد يعيق مهمتنا.

كان المطر ينهمر بغزارة عندما بدأنا الرحلة، لكنّ الشمس كانت تغيب حيناً وتشرق حيناً تتبع أقواس قزح البارزة بوضوح بين الغيوم، وقد ذكرتني الهضاب المتموّجة التي اجتزناها بتلال سَسِكْس (Sussex)، بينما ظهرت خلفها صخور جرداء ومنحدرات وعرة. وبعيداً عن ذلك إلى اليمين يمكن مشاهدة البحر الأبيض المتوسط من بين التلال الزرقاء الضاربة إلى اللون الرمادي. وكنّا بين الحين والآخر نمرّ بمنحدرات تشبه تماماً المنحدرات الإنجليزية المزدانة بالعشب والأزهار، وحيثما ينمو الشوك العشبي فإنه يحمي القرنفل والقرنفل الصيني وزهرة "لا تنسني"[3] (forget –me-not).

استمر هطول المطر بغزارة بينما سرنا على سلسلة جبلية شديدة الانحدار يمكن منها مشاهدة حصن صانور. إنها تقف على قمة تلّة ذات شكل مخروطيّ لا يمكن الوصول إليها. وكانت الطريق نحو الجهة الجنوبية من السلسلة الجبلية بالغة الصعوبة وخطرة على الخيول التي ترجلنا عنها نحن وحتى مرافقونا من العرب، وبقينا نحثّ دوابنا على المسير ونجرّها وهي تمانع. وقد اضطررنا للمسير بحذر شديد وخطوة خطوة وبالانزلاق أحياناً والقفز بالتناوب فوق بعض الحجارة المتناثرة وقطع الصخور الناعمة، وأحياناً في وسط القنوات ذات الماء الضحل، لكنّ المياه المتدفقة كانت تتجمع حول أقدامنا. وقد توقفنا لدقيقة أو دقيقتين في وادٍ ضيّق، ووقفنا تحت سقف كوخٍ منخفضٍ معزول مبني من أغصان الشجر والحجارة. وبعد ذلك، وبصعوبة، صعدنا إلى التلّة ووصلنا إلى صانور. ولم يكن سكانها يرغبون في أن يكون الاقتراب من بلدتهم أمراً سهلاً في هذا الوقت الذي تشهد فيه البلاد حرباً أهلية.

وجدنا بوابات البلدة مغلقة، ولكن بعد مفاوضة مع الخفير سُمحَ لنا بالدخول. كان

---

(1) ص 256.

(2) ص 256– 261.

(3) نوع من الزهور البريّة ذو زهر أزرق فاتح يعتبر رمزاً للإخلاص والصداقة، ويقال له أيضاً: أذن الفار.

الوقت منتصف النهار تماماً، وكنت متعبةً ومصابة بـدوار ومبلّـلـة. ثـمّ جـرى اصـطحابنا إلى قاعة واسعة ذات عقود وجدرانها سوداء بسبب دخان التبغ في الطـابق الأرضي مـن القلعـة. وقد نهض نحو خمسين رجلاً يلتفّون جميعاً بعباءاتهم الثقيلة، وغـادروا المكـان لـدى دخولنـا إليه. وقد فُرش لنا بساطٌ في مكان مخصّص للجلوس واسع وعميق وعند النافذة. وقد قمت بتفريغ الماء من حافة قبعتي، وخلعت بسرور عباءتي، وأخذت كوباً من القهوة الساخنة.

وفي هذه الأثناء كان مكانٌ آخر يعدّ لنا من اجل راحتنـا. وقـد اصـطحبنا زعـيما القلعـة إبراهيم جرّار[1] وأخوه[2] عبر ساحة القلعة خلال درج حجريّ ومكشوف وشديد الانحـدار إلى قاعة مفتوحة. وما إن تجاوزنا عتبة الحجرة ذات العقود في الجزء الأعلى من القلعـة حتـى قالوا لنا: مرحباً بكم، وخذوا راحـتكم. وقـد فرشـت أرض الحجـرة بالـسجّاد والوسـائد. وكانت نافذة الحجرة تطلّ على منظر سهلٍ صغير خصب يكاد يكون محاطاً بـالتلال، ولكنّـه ممّا يمكن الوصول إليه بسهولة من جهة الجنوب الغربي عـبر وادٍ ضـيّق أو ممـر. وفي أوقـات الحرب فإنّ طريقه المظلمة تكون مراقبةً بعناية من قبل أهل صانور.

وقد أُحْضِرَ لنا طعامٌ من الخبز والبيض المقليّ وجبنة حليـب الـضأن والزيتـون، ووضـع على طبق خشبي مستدير يرتفع بضعة إنشات فوق الأرض. ثمّ قام الخـدم بـصبّ المـاء عـلى أيدينا. وبعد أن رُفعَ الطعام ووزّعت القهوة والغلايين دار حوارٌ جادّ بين أبناء جرّار وأخـي، بينما كان ثلاثة أو أربعة منهم يجلسون جانباً بصمت وهم يدخنون ويستمعون. وقـد انتبـذت جانباً للراحة على سجادة ذات وسائد، وأخذت أراقب الجماعة المفعمـة بالحيويـة والنـشاط. ولم أر في حياتي في بلاد الشرق أيّ رجالٍ بهذا الطول وتناسب القوام والوسامة مثـل إبـراهيم جرّار وشقيقه. فقد أضفت عليهم عباءاتهم البنية والبيضاء والواسـعة والفـضفاضة المطويّـة على أجسامهم بطريقة جميلة، وكذلك كوفياتهم الحريرية الحمراء والصفراء التي كانت تشرق على رؤوسهم، رزانة ووقاراً واضحين، مع ملامح كلاسيكية متناسقة ومعبّرة جداً. وقـال لي شقيقي باللغة الإنجليزية "إذا وجدت فرصة بكـلّ الوسـائل الممكنـة ارسـمي صـورة طبـق الأصل لمضيفنا إبراهيم، فهو الرجل الأكثر أهميّة في هذه المنطقة سواءً مـن حيـث الـشجاعة والجرأة والطاقة، وعائلته منـذ أجيـال عديـدة يـضرب بهـم المثـل في القـوّة والنفـوذ وجمـال الرجولة". "ولكنّه أضاف: ولا تدعيه أو تدعي أحداً من الآخرين يلاحـظ أنّـك ترسـمينه، لأنّه بمقدار ما هو وسيم فإنه شديد الحساسيّة".

كان الرجال جميعاً مستغرقين جداً بالتـدخين والحـديث أو الإصـغاء، بيـنما كنـت أقـوم

(1) هو الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد الله اليوسف الجرّار ويكنى بأبي خليل.

(2) من إخوة الشيخ إبراهيم: أحمد (شيخ جبع) ومحمد ومفلح.

بالكتابة والرسم بالتناوب، ونجحت في رسم صورة له دون أن ألفت انتباه أحد.

ثمّ أخذني إبراهيم جرّار إلى حجرة نسائه، وتقع في مركز القلعة وفي المكـان الأكثـر أمنـاً فيها، وتتألف من ثلاث غرف تفتح جميعها على ساحة مربعة. ثـمّ قـدمني لزوجاتـه الـثلاث وأعطاهن تعليمات باستقبالي ومعاملتي كأخت لهنّ، ثمّ تركني معهنّ، بينما قـام باصـطحاب أخي في جولة في أنحاء البلدة. وقد حيّتني النساء بينما كنّ يرمقنني بدهشة غير خافيـة، وقـد كنّ أكثر بساطة وصراحة وذات نظرات بريئة أكثر من أيّ امـرأة عربيّـة شـاهدتها في حيـاتي. وكنّ كذلك شابّات وجميلات بصورة عامّة، وسمينات ومتورّدات الوجنـات ذوات بـشاشة وإشراق مثل الأطفال السعداء. إنهـنّ ينتمـين إلى طبقـة الفلاّحـين، إنّ ملابـسهنّ الطويلـة الفضفاضة أو المعاطف النسويّة كانت قرمزية ومن الحريـر الأبـيض المخطّـط. وقـد أحطـن وجوههنّ بقطع من العملة الفضيّة العريضة وصفوف من العملة الذهبيـة الـصغيرة معلّقـة على جباههنّ مثل عصابة الرأس، ليربطن بها شعرهنّ الأسـود الكثيـف، الـذي كـان يُقـصُّ قصيراً من الأمام ويمشّط حتى يـصل إلى حـواجبهنّ المقوّسـة فيخفـي جبـاههنّ تمامـاً. أمّـا عيونهنّ فكانت واسعة وصافية وكانت رموشهنّ مكحّلة، وكانت ذقونهنّ وصـدورهنّ ذاتَ وشوم على شكل نجوم. وكنّ هنّ وأطفالهنّ وغرفهنّ البيضاء المفروشة بالحصر تبدو نـاضرة ونظيفة وسارّة.

وقد وجدت أن أكثر الفتيات جمالاً وصحّةً وقوّة يتمّ اختيـارهنّ لـيكنّ زوجـاتٍ لأبنـاء جرّار، من أجل المحافظة على ديمومة الصحة والجمال التي يفخرون بها كثـيراً في عـائلتهم. لم أسمع أن أحداً من آل جرّار يستطيع القراءة أو الكتابة أو حتى توقيع اسمه. بينما نجـد كثـيراً من أبناء عائلة عبد الهادي متعلمين جداً، ويقدّرون التعليم، كما أنّ سيّدات عرّابة متحضّرات إلى حدّ ما، ويبدو عليهنّ أنهنّ يختلفن كثيراً عـن نـساء صـانور البـسيطات الريفيّـات. وقـد رسمت صورة لرأس إحدى الزوجات بينما كنـت أحـاول أن أشركهـنّ في حـوار، لكننـي لم أنجح في ذلك. فعندما كنت أتحدث كنّ ينظرنّ إليّ بتساؤل ويضحكن مع بعـضهنّ بخجـل، أو يقلن عبارات متداولة تجسّد المجاملة أو الدعاء.

وبينما كنت مستريحةً أدخن النرجيلة التي أعددنها لي، استدعيت فجأة للالتحاق بـأخي، فقد علمت أنّ الشابّ الذي كان يراقب المدخل الجنوبي الغربي لصانور قد أرسل خبراً يفيـد بأنّه استطاع أن يرى قوة من فرسان الأتراك تعبر من الوادي الـضيّق نحـو الـسهل الـذي في أسفل البلدة. وقد أخبرنا إبراهيم جرّار بأنه عرف بأنّ هـذه القـوّة قـد أرسـلها كامـل باشـا لتفتيش البلدة والبحث عمّا إذا كان بعض البدو قد اختبأوا فيها، وأخبرنا أنه سيـساعد أهـل

صانور إذا تعرضت للحصار. وأضاف بحزم: "لقد أعطيت (كلمة شرف) بأنه لا يوجد أيّ بدو داخل أسوار البلدة، إننا كلنا فلاّحون. ولن يسمح لأحد أن يمرّ من هذه البوابات حيّاً إذا، حاول أن يدخلها بالقوة المسلّحة، لتفتيش البلدة".

ثمّ تحدّث أخي معه وهدّأ من غضبه، وبعد ذلك أعلن إبراهيم بأنه مستعدّ لاستقبال قائد القوّة سلميّاً، وبشرف واحترام، إذا جاء بمفرده. ولكنه إذا اقترب مع جنوده من البوابات فإنها سوف تغلق دونه. وقد ظهر من خلال الجلبة والحركة في الشوارع الضيقة في كل اتجاه أنّ هناك استعدادات كانت تتخذ من أجل المقاومة. قال لي أخي: أنا مقتنعٌ تماماً بأنه لا يوجد أي بدو في البلدة، هل لديك الشجاعة أن تنزلي معي إلى السهل لعلّي أتحدث مع ضابط الفرسان وأحول –إن كان ممكناً– دون وقوع صدام غير متكافئ ولا جدوى منه؟

لم أتردد في تلبية طلبه في الحال. ثمّ ركبنا خيولنا وبأقصى سرعة ممكنة وانحدرنا مع التلّة دون أن يكون معنا أحد، بينما كان الناس على الأسوار المتأهبة للمعركة وعلى أسطح المنازل وعلى البوّابة الخاضعة للحراسة يراقبوننا ويوجّهوننا متمنين لنا التوفيق في مهمتنا. وسرعان ما وصلنا إلى منتصف الطريق في السهل تقريباً حيث التقينا مع الجنود المتقدّمين. ولّما صرنا على مسافة يمكن أن نتحدث معهم منها توقفنا قبالتهم فجأة، وكانوا على وشك أن ينقسموا فريقين من حولنا، لكنّ أخي رفع يده بثقة وقال بصفته شخصاً لديه صلاحيّة: توقفوا! فتوقفوا في الحال في أماكنهم. ثمّ طلب الكولونيل وقال بأنّه يرغب في الحديث معه، ثمّ قال وهو ما زال يحتفظ بصفة صاحب السلطة والصلاحية: اسمع أيها الكولونيل، إنّك ذاهب إلى صانور باسم سعادة كامل باشا. إنّ الجواب على الرسالة التي جئت تحملها هو: لا. اذهب أنت بنفسك بهدوء وسلام واسمع هذا الجواب من أهل البلدة. ولكنك إذا سمحت لرجالك بالتقدم خطوة واحدة نحوها، فإنك ستتحمل جميع التبعات.

ولّما سمع الكولونيل هذا الكلام استعدّ من غير تردّد للطاعة، تاركاً مفرزته الصغيرة في السهل وأصدر أوامره بأن ينتظروا عودته. ثمّ عدنا إلى القلعة وسرنا ببطء وتركنا الجنود الأتراك مندهشين لما حدث، وقد أخذوا يعدون بخيولهم بشكل دائري مؤدّين بعض حركات الفروسية لإمتاعنا. وقد قام رجل أسود – يظهر أنه الخادم الخاصّ للكولونيل– بالنقر على آلة المثلث الموسيقية وقام بحركات خيالية برأسه الذي عليه عمامة.

وقد تألفت المفرزة من سبعين فارساً فقط، وكان من الممكن أن يقتلوا جميعاً إذا ما تورّطوا في صدام مع رجال صانور دون أن يتحقق أي هدف. وبعد تأخّر قصير رجع الكولونيل راضياً تماماً والتحق برجاله. وفي الوقت نفسه نزل خدمنا ومرافقونا ومعهم

الأمتعة، ثمّ واصلنا السير باتجاه نابلس التي تبعد نحو خمسة عشر ميلاً جنوب صانور، وقد سبقنا الجنود. وسرنا بعض الوقت في صحبة الكولونيل الذي أخبرنا بأن كامل باشا قد صمّم على تدمير صانور وأنه خصص جائزة مقدارها ثلاثون ألف قرش مقابل رأس إبراهيم جرّار.

وبعد وصول الكاتبة وشقيقها إلى نابلس تقول[1]:

وقد أرسل كامل باشا – الذي كان مضيفنا في الخليل – أحد رجاله لنقل تحياته إلينا، وقد تبعه عدد من الموظفين الأتراك. وقد عرفت هذا الموظف جيداً، لقد كان أحد المسيحيين وقد تم ترفيعه إلى رتبة أفندي في قنصلية القدس. قلت له: أخبرني أيّها السيّد المبجّل، هل صحيح أنّ سعادة كامل باشا قد خصّص جائزة مقدارها ثلاثون ألف قرش مقابل رأس إبراهيم زعيم صانور؟ فأجاب: إنّه كذلك يا صاحبة السعادة. ثمّ قلت: هل يمكن لسيادتكم أن تنقل باسمي تحياتي إلى الباشا وتعلمه بأنّ رأس الزعيم إبراهيم جرّار موجودٌ عندي وفي ملكيتي؟ حدّق الضيوف الذين كانوا حاضرين حتى أخي أصابته المفاجأة. قال الأفندي: هل تذرّين الرماد في عيوننا؟! وهل تضحك السيّدة على لحية الباشا؟ قلت ثانية: دع سعادته يعلم بأنني أملك الرأس الذي يرغب في الحصول عليه. وقد تحدّثت بلهجة تبدو جادّة بدون أن أعطي مزيداً من التفسير لما قلت. وقد استمتع الناس بوضوح بمقدار ما كانوا حائرين.

وفي صباح اليوم التالي، وبعد استراحة تامّة، نهضت وكنت قد استدعيت إلى الديوان حيث كان الأفندي بانتظاري، وقد أرسله كامل باشا لإبلاغ التحية لي وفوّضه بأن يتسلّم من بين يديّ رأس الزعيم المتمرد. قلت: "ولكن أين كيس القروش يا صاحب الاحترام؟! فأجاب: إنّ القروش ليست معي يا سيدتي. فأجبت: إذن لا يمكنني أن أسلّمك الرأس. ثمّ ذهب ورجع في الحال ومعه خادم الباشا الذي كان يحمل طبقاً كبيراً مستديراً من الكنافة الساخنة، وهي نوع من الحلوى مصنوعة من الشعيرية مخبوزة مع الزبدة والسكر واللوز والجوز والبهارات. وقد أمر الباشا بإحضاره لي. وقد حضر عدد من الناس الذين كانوا متشوقين لمعرفة الأمر وللمشاركة في تناول طبقهم المفضّل.

وقد وضع الأفندي الطبق بلباقة أمامي، وبعد أن غسل الجميع أيديهم شاركوا في أكله. وقد سئلت إن كنت أرغب بإعلامهم أين يوجد الرأس. قلت: في حقيبة سفري في الغرفة المقابلة. ثمّ قال الأفندي: هل يمكن أن ترينا إيّاه أيّها السيّدة المهذّبة؟ وقد حثّتني نظرة من شقيقي بأن ألتزم بوعدي، ولذلك أخرجت الصورة، وقد صاحَ جميع الرجال الموجودين لدى مشاهدتها

---

(1) ص 262– 263.

حالاً: إبراهيم! إنّه إبراهيم جرّار! إنه إبراهيم زعيم صانور! إنّه الخالق الناطق! حتى إنّ أكثر الضيوف الموجودين رزانة وذوي المظاهر الرسميّة بدا أنهم استمرأوا النكتة تماماً، وقد ذهبوا إلى كامل باشا لشرح اللغز، ممّا دعاه إلى استدعائي ومعي الصورة، وطلب مني أن أسمح له بالاحتفاظ بها. قلت: بكل سرور يا صاحب السعادة، وأرجو أن تقبل بأن تعتبر هذه الصورة بدلاً من الرأس الحقيقي بل هي الرأس الوحيد لإبراهيم جرّار، وأن تقرر إجراءاتك بموجب ذلك". وقد وعد صاحب السعادة – وهو يضحك – بأن يفعل ذلك، ولذلك احتفظت أنا بالصورة التي على ما يظهر لم يرغب بأن يتخلّى عنها. وقد تأملها بعناية وحملها بيده مطوّلاً، لكنني لم أتخلّ عن شروطي. ثمّ أعطيته صورة أخرى من الصور التي اختارها من ملفّي.

وفي أثناء وجودهما في نابلس زارهما حاكمها محمود بك عبد الهادي وكان ممّا دار بينها وبينه من حوار [1]:

"قال: هل تحبّين عرّابة أم صانور أكثر؟ قلت: وجدت متعة أكثر في عرّابة، وأتمنى أن أرى مرّة أخرى أصدقائي الذي استقبلوني هناك بلطف كبير" فقال: الحمد لله أنّ عرّابة قد حظيت برضاك".

وفي أثناء وجودها في حيفا سنة 1857 تقول[2]:

"وفي عصر يوم الأحد السابع عشر من نيسان، عندما كنت أنا وأخي في مكتب نائب القنصل دخل علينا فجأة عبدٌ أسود طويل ومعه ستة أولاد من المسلمين، ثمّ أغلقوا باب الغرفة، وقد بدا على وجوههم الذعر والإعياء والصدمة كما لو كانوا هاربين من خطر عظيم. وقد أمسك الأولاد بنا وأخذوا يقبّلون أيدينا وأثوابنا بلهفة وهم يصيحون: أنا دخيلك أنا دخيلك. ثمّ أدركت في الحال أنّ هؤلاء الأولاد كانوا أبناء وأبناء أخ صديقي القديم صالح بك عبد الهادي. وقد بيّن لي العبد الذي كان يتحدث معهم بكلمات سريعة قليلة بأنّ عرّابة قد تعرضت للحصار من القوات التركية بمساعدة آل جرّار وآل طوقان، وأنّ عائلة عبد الهادي لم يعد لديها أمل بالقدرة على الدفاع عن البلدة. وأنّ صالح بك أرسل أبناءه الشباب بعيداً، كي يجد لجوءاً سياسياً في حيفا. وقد تمّ إقناع الأطفال بأنهم سيكونون في أمان إذا استطاعوا الوصول إلى مكتب نائب القنصل الإنجليزي".

---

(1) ص 282 – 283.

(2) ص 414 – 415.

(28)

رحلة الدكتور ويليام ثومسون قبل عام 1857

الأرض و الكتاب



رحلة الدكتور ويليام ثومسون قبل عام 1857:
الأرض والكتاب [1]

يقول في وصف طريقه من الناصرة إلى نابلس مروراً بجنين[2]:

"إنّ جنين الآن هي البلدة الرئيسية الواقعة بين الناصرة ونابلس، ويسكنها نحو ألفي نسمة، جميعهم تقريباً مسلمون، ولها حاكم وموظفون ومأمورو جمارك، وتتعامل بشكل كبير مع جميع منتجات البلاد ومع البدو في شرقي الأردنّ، لكنّ أهلها متعصّبون وخشنون ومتمرّدون. وهم في معظم الأوقات يقتتلون في ما بينهم أو مع جيرانهم. ويوجد فيها ثلاث عائلات بارزة هي التي تبقي على هذا النزاع المستمر وإراقة الدماء في هذه المنطقة برمّتها وهي: عبد الهادي وبيت طوقان في نابلس وعرّابة، وبيت جرّار في جنين. ويدور الآن قتال حقيقي بين جنين ونابلس، ويؤكّد المسافرون الذين التقينا بهم هذا الصباح بأنّه لن يكون بمقدورنا المرور من البلاد في هذا الاتجاه، وسوف نعرف أكثر عن هذا الموضوع غداً.

ولكن ما الذي يعنيه هذا الاضطراب؟ فلقد مرّت بنا ليلة لم تكن هادئة بتاتاً. لقد خرجت من أجل أن أتحقق من السبب، ويبدو أن الأطراف المختلفة التي مرّت من هنا مساءً بمثل هذا الاضطراب الوحشي كانوا بدواً من الغور ومن جبل عجلون من شرق الأردنّ. وقد جاء بهم بيت جرّار وطوقان لمساعدتهم ضدّ آل عبد الهادي، وقد وقعت بعض المناوشات خلال الليل بالقرب من جبع، بينهم وبين أشياع آل عبد الهادي من عرّابة.

---

(1) W.M. Thomson, The Land and the Book, 2 Vols., New York, Harper and Brothers Publisher, 1859، ولهذا الكتاب عدّة طبعات يقول في غلاف هذه الطبعة التي نعتمدها إنها نتيجة خمس وعشرين سنة من النشاط التبشيري في سوريا وفلسطين، بينما ينصّ في غلاف طبعة عام 1883 إنها نتيجة خمسٍ وأربعين سنة من النشاط التبشيري في سوريا وفلسطين. وكلا هاتين العبارتين تعني أن ثومسون بدأ رحلاته في سنة 1834، وما دامت كلّ طبعة تتناول خبرات مختلفة من حيث المدّة الزمنية، فما من شكّ أنّ ثمة اختلافاً في ما احتوت عليه الطبعتان، وقد لاحظت أنّ ثمة اختلافاً في وصفه لصانور وحديثه عن آل جرّار وعن الأحداث السياسية التي مرّت في تلك المنطقة بين الطبعتين، ولذلك رأيت أن أورد ما وجدته في هاتين الطبعتين. وقد ذكر ثومسون في غير موضع من كتابه أنه زار منطقة صانور مراراً، وذلك أنّه أمضى شطراً كبيراً من حياته في فلسطين، فقد ولد وليام ثومسون في أوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1806 وتخرّج من جامعة ميامي في أوهايو سنة 1829، وتابع دراسته في معهد تبشيري، وفي سنة 1833 وصل إلى بيروت مع وفد تبشيري هو الوفد الثامن الذي يصل إلى فلسطين من الولايات المتحدة الأمريكية. وفي سنة 1834 انتقل مع زوجته إلى القدس، وشهد ثورة أهل فلسطين على إبراهيم الباشا المصري، وبعد وفاة زوجته في القدس انتقل إلى بيروت وأنشأ هنالك مدرسة بعد أن تزوّج من مطلّقة القنصل Abbott، وبدأ منذ سنة 1840 بأنشطته الاستكشافية في بلاد الشام.

(2) 2: 189 – 197.

ويقول أهل جنين وهم من حزب الجرّار بأنّ آل عبد الهادي قد هزموا، ولكن الأعمال الدموية ما زالت جارية إلى الآن، وأن القرى الصغيرة قد هجرها أهلها. ولو أنك تنظر إلى الممرّات في أسفل الجبال فإنك سوف ترى نساءً وأطفالاً يفرّون هناك بأثاثهم المتنوّع على الحمير والبغال والجمال.

ثمّ يتابع حديثه عن أهل المنطقة قائلاً[1]:

إنهم منقسمون حتى بين أنفسهم، فعلى سبيل المثال فإنّ نصف السيلة –تلك القرية الواقعة على طرف السهل– لآل عبد الهادي، والنصف الثاني لبيت الجرّار، وتستطيع أن ترى بريق رصاص البنادق في هذه اللحظة حيث يطلق كلّ منهم النار على الآخر من بيوتهم.

إنّ النساء التي أمامنا ساخطات جداً على آل عبد الهادي، فقد قام رجال هذا الفريق من مدّة ليست طويلة بالهجوم على قرى ناحية الروحة، وقتلوا بعض الناس وأحرقوا منازلهم وسلبوا الأبقار والأغنام، ولكن من أكثر ما يثير سخط هؤلاء النسوة ما تعرّض له هؤلاء البؤساء من سوء المعاملة وقتل نسائهم وأطفالهم، وهذا عملٌ فادحٌ وشنيع أعلنت هؤلاء النسوة بصوت مرتفع بأنه لم يكن معروفاً بينهم من قبل، وحسب علمي فإنّ هذا صحيح، ففي الحروب الأهلية التي خرّبت لبنان في سنة 1841 وسنة 1845 لم تكن النساء تتعرّض لأيّ مضايقة حتى في أثناء المعارك. وقد رأيتهنّ مراراً وفي طرفي القتال يتراكضن وهنّ يحملن الماء لأصدقائهنّ الذين يعانون من شدّة العطش، ولم أعرف أنّ أيّاً منهنّ قد جرحت أو أهينت.

وهذا الاحترام ذاته للمرأة جرت دائماً مراعاته في هذه المنطقة أيضاً طوال الفترة السابقة إلى وقت هذا الاندلاع الأخير للقتال، وما بعده، بسبب الحنق البالغ بين مختلف الأطراف المتصارعة، فلو وقع أحد من أبناء عبد الهادي في أيدي هؤلاء النسوة فإنهنّ سوف يقسمن على أن يشوينه حيّاً. وهذا السخط العام يجعل المرور من هذه الناحية خطِراً خطَراً أكثر من عاديّ، وأن من الصواب والحكمة الإسراع في الخروج من هذا الميدان من ميادين صراعهم الدموي بأسرع ما يمكن. والآن يحثّ حسين سائسي البغال، وها هو الآن يدعونا للركوب وترك هذا المكان.

ويقول في موضع لاحق[2]:

إنّ السيلة التي يتبادلون فيها إطلاق النار محاطة بالبساتين الرائعة "للزيتون الذي

(1) 2: 190.

(2) 2: 191.

يعيش بسلام!" ولكن لا همسات البساتين ولا الفلاحة البريئة للأرض ولا الطقوس الدينية اللطيفة للرعاة تستطيع أن تخفف من ضراوة هؤلاء البرابرة. وا أسفاه بأنّ بلداً مثل هذه تدمّر على أيدي عربٍ متوحشين، وتغرق بنيران الحروب الأهلية! ولكنها، كانت على هذا النحو على مدى عصورٍ سابقة، وإنني أخشى أن تظلّ كذلك لعصور أخرى قادمة، وفي الواقع فإنّ هذا السهل كان دائماً ميدان معارك عظيمة: الكنعانيون والفلسطينيون، اليهود والمصريون، الكلدانيون والفرس، اليونان والرومان، المسلمون والمسيحيون، من كلّ العصور والأمم تقريباً.

ثمّ يقول[1]:

إنني أشعر بأسف شديد لأننا لم نستطع أن نمرّ من هذه التلال إلى السامرة ونابلس. ولكن قد نزور هذه الأماكن في طريق عودتنا من القدس، إذا هدأت هذه الأعمال العدائية بسرعة كما يحدث دائماً، وفي هذه السهل المهجور. لقد سافرت عبر هذا الطريق من جنين إلى السامرة مرّات عديدة، لكنّها في أغلب الأحيان غير مريحة بسبب هذه النزاعات كالتي نشهدها اليوم.

ثمّ يقول في موضع لاحق[2]:

"ومن قباطية نصعد تلّة صخرية جداً، ثمّ ننحدر عبر سهل منخفض إلى صانور التي تبعد ساعتين عن جنين. في فصل الشتاء يتحول هذا السهل إلى بحيرة يبلغ محيطها عدة أميال، لكنها تجفّ بعد ذلك، وتزرع بالذرة والخضروات في فصل الصيف. وتقع قرية صانور داخل قلعة على تلّة منعزلة على الزاوية الشمالية الغربية من هذا السهل، ولكنها الآن ومنذ زمن طويل، سكانها خشنون ومتعصبون، مستعدون دائماً للتعرض للمسافرين، وإثارة التمرّد ضدّ الحكومة.

وجبع قرية أخرى كبيرة على بعد نحو ساعة من صانور، وتقع بقوة على حافة الجبل، ومن هناك فإنّ الطريق إلى السامرة تتفرع من الطريق المؤدية إلى نابلس، حيث تنعطف إلى اليمين بمحاذاة قاعدة تلّة جبع، والطريق برمتها تمرّ بشكل جميل ولا نهائي عبر تلال وأودية وسهل خصيب يفلح جيداً حتى الآن ومعمور بكثافة.

(1) 2: 192.

(2) 2: 197.





(29)

رحلة وليام ثومسون سنة 1857

الأرض والكتاب (طبعة 1883)



رحلة وليام ثومسون سنة 1857[1]:
الأرض والكتاب (طبعة 1883)[2]

يقول عن العاشر من أيار[3]:

"نحن الآن بصدد حزم أمتعتنا للتوجّه إلى جنين، وسائسو البغال يسلكون الطريق العاديّة والأسهل حول الطرف الغربي لجبال عيبال مروراً بجبع وصانور".

وعند وصوله إلى جبع ثمّ صانور يقول[4]:

"ما اسم هذا المكان الذي يقع على يسارنا؟ إنّه يبدو أكثر ازدهاراً من معظم القرى التي في هذه المنطقة، فبيوته أكبر ومبانيه أكثر إتقاناً. إنه يدعى جبع، ومن المحتمل أن تكون الاسم الحديث لواحد من الأماكن التي عرفت في الكتب المقدسة باسم جبع. إنّ لها موقعاً مشرفاً على حافة الجبل، وهي البلدة الأكثر أهميّة في المنطقة الواقعة بين سبسطية وجنين[5]. ومن هذه القرية وصلنا إلى الطرق المعتادة التي تؤدي إلى تلك المدن. وهنا أيضاً نجد الطريق المباشرة إلى نابلس تنعطف نحو اليسار.

إنّ البلاد من جبع إلى السامرة أو سبسطية تتألف من تلال وينابيع وأودية خصبة، ولذلك فإنها مأهولة بكثافة وتفلح جيّداً. وتقف القرى شامخة بشكل بارز، وتبدو يانعة بسبب الينابيع المتدفقة، مؤكّدة أدلّة الكتاب المقدّس وجوزيفوس في ما يتّصل بمنطقة السامرة.

وأمّا القرية التالية والتي تبعد نحو نصف ساعة نحو جنين فهي صانور، وقد اعْتَقَدَ بعضهم أنها بيثوليا القديمة المذكورة في كتاب جوديث، وهي تقع على تلّة صخرية مستديرة وشبه معزولة. وهي تشرف على بقعة واسعة من المنطقة، وكان قد سكنها وحصّنها سكّان متعصبون من المسلمين، وكانوا على الدوام في حالة تمرّد ضدّ الحكومة، كما كانوا دائماً

---

1 تشتمل هذه الطبعة من طبعات "الأرض والكتاب" لويليام ثومسون على رحلة أخرى قام بها لصانور غير تلك التي وصفها في الطبعة السابقة. ويأتي حديثه عن هذه الرحلة ضمن يوميات لرحلة قام بها الدكتور ثومسون وبدأها من بيروت بتاريخ 24/ 1/ 1857، واختتمها في بيت لحم والقدس في 14/ 5/ 1857، ومرّ خلالها بمرج ابن عامر وجنين ونابلس.

(2) William M. Thomson, The Land and the Book, London and New York, 1883

(3) ص 151.

(4) ص 165 – 166.

(5) بعد تدمير قلعة صانور على يد عبد الله باشا والأمير بشير الشهابي سنة 1830، وجه آل جرّار عنايتهم لبلدة جبع فأصبحت كرسيّاً ومعقلاً جديداً لآل جرّار، ولعلّ هذا هو سرّ تميّزها عن القرى المجاورة.

على استعداد للتعرّض أو حتى سلب الرحّالة الذين يسافرون بلا حماية [1].

وعندما مررت بهذه الطريق قبل أربعين سنة، فإنّ صانور كانت مهجورة ومدمّرة[2]. وقد استدعى عبد الله باشا والي عكا سنة 1830 قوّة كبيرة من جبل لبنان، يقودها الأمير بشير الشهابي لتعاون قواته على حصار هذه القلعة العاصية. وقد تمّ الاستيلاء على القلعة بعد ثلاثة أشهر من الحصار وتمّ حرقها. وقد رويت لي كثير من الروايات عن هذا الحصار من بعض الأشخاص الذين كانوا مشاركين في هذه الحملة. ثمّ أعيد بناء صانور من قبل سكانها السابقين حزب بيت جرّار، وما زالوا إلى الآن يتمتعون بصفاتهم الأصيلة وشهرتهم.

وهذا السهل الصغير الجميل الذي نشاهده يمتدّ أسفل القلعة باتجاه الشمال الشرقي، هل له اسم محدّد؟ إنّه يقال له مرج الغرُق، وهو اسم مطابقٌ لمسمّاه! إنه جميل كما يظهر لنا الآن، وقد سبق أن رأيته في فصل الشتاء مغطّى بعمق بضعة أقدام بمياهٍ وحلة مائلة إلى الاصفرار، وهو إذن بحيرة دائرية تقريباً قطرها نحو ثلاثة أميال. وفي وقت مبكر من الصيف تأخذ البحيرة بالجفاف، وتزرع تربتها الخصبة والغنية جداً بعد ذلك بالخيار والبطيخ والدُّخُن أو الذرة الصفراء، كما يسميها الناس المحليون، وغيرها من المحاصيل الصيفية.

ثم يتابع قائلاً في وصف جنين وصانور وعرّابة[3]:

"إنها واحدة من أكثر المناطق اضطراباً في فلسطين. والناس هناك في حالة شجار مستمر إمّا في ما بينهم أنفسهم وإمّا مع العربان الذين يجوبون المنطقة والقادمين من وراء نهر الأردن، وإمّا أنّهم يعيشون حالة من التمرّد ضدّ الحكومة.

وهناك ثلاثة أو أكثر من العائلات أو القبائل المتزعمة المتنافسة الذين يجعلون إراقة الدماء مستمرة في هذا الجزء من البلاد، بيت عبد الهادي وعشيرة طوقان في عرّابة ونابلس، وبيت جرّار في صانور وجنين، وعشيرة الريّان ذات الأصول البدوية في غرب نهر الأردن"[4].

(1) عندما يقرأ المرء شهادات الرحّالة الذين مرّوا بصانور فإنه يخرج بانطباع مغاير لما يقوله ثومسون.

(2) إذا كان ثومسون يتحدث عن سنة 1830 باعتبارها قبل أربعين سنة، فمعنى ذلك أن أحداث رحلته الأخيرة كانت في حدود 1860 أو ما بعدها.

(3) ص 166.

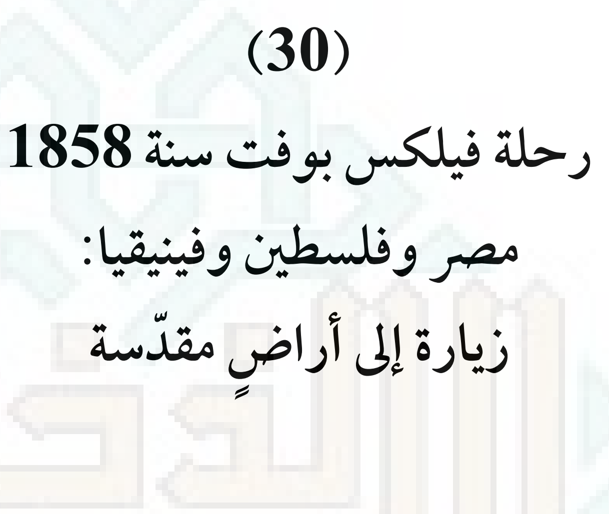
(4) ترجم سليمان الموسى فقرة من مشاهدات ثومسون في صانور في كتابه: رحلات في الأردنّ وفلسطين، سليمان الموسى، دائرة الثقافة والفنون، عمّان، ط2، 1987، ص 153.

(30)

رحلة فيلكس بوفت سنة 1858

مصر وفلسطين وفينيقيا:

زيارة إلى أراضٍ مقدّسة





رحلة فيلكس بوفت سنة 1858[1]:
مصر وفلسطين وفنيقيا: زيارة إلى أراضٍ مقدّسة 1882[2]

يقول في وصف صانور في سفره من نابلس إلى الجليل[3]:

وفي أثناء مسيرنا من جبل إلى جبل فإننا نمرّ بالتتابع بكلّ من برقة والفندقومية وجبع.....ثمّ نجد أنفسنا في واد بجانب بحيرة صغيرة في بقعة منخفضة ليس لمياهها أيّ تصريف، ولكنها تجفّ في الصيف، وهي في فصل الشتاء تكون أوسع ممّا هي عليه الآن، وهذا ما يمكن الحكم عليه من أكوام القصب المتناثرة في البساتين.

وبالقرب من هذا المكان توجد صانور يحيط بها سور قصير وتتوّج، مثل جبع، قمة التلّة التي تكاد تكون مستديرة وذات شكل منتظم، حيث تقف مثل برجٍ على حافة سلسلة تلال منخفضة، وقد اعتقد بعض الرحّالة أنها بيثوليا الواردة في كتاب جوديث، لكنّ آخرين منهم يرون أنّ بيثوليا في جنين وهي المكان الذي سنقضي فيه الليلة، ويرى آخرون أنّها في قباطية التي نحن على وشك الوصول إليها.

---

(1) ولد فيلكس بوفت سنة 1824، وذهب في سنة 1843 إلى برلين ليدرس الحقوق، لكنه تحوّل إلى دراسة اللغة العبرية، ثمّ قام برحلته إلى فلسطين.

(2) Felix Bovet: Egypt, Palestine and Phoenicia: A Visit ot Sacred Lands (1882), Hodder and Stoughton, London, 1882

(3) ص 332.



(31)

رحلة درايدن فيلبس سنة 1862

الأرض المقدّسة مع نظرة خاطفة على أوروبا ومصر – عام من الرحلة



رحلة درايدن فيلبس سنة 1862[1]:
الأرض المقدّسة مع نظرة خاطفة على أوروبا ومصر - عامٌ من الرحلة[2]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى جنين[3]:

ومن أعظم القرى التي مررنا بها قرية جبع، وهي مكان مزدهر، تقع بشكل بديع على منحدرٍ يطلّ على وادٍ أخضر، وتحيط بها أشجار الزيتون والتين اليانعة ونباتات الزعتر العطرة. وهنا توجد طريق تقاطعي يأتي مباشرة من نابلس. ثمّ يظهر لنا من خلال طريقنا وادٍ ضيق يبعد نصف ساعة عن مكان وجودنا حيث نأتي إلى سهل صانور الدائري. إنه بقطر ثلاثة أو أربعة أميال، وهو على هيئة بحيرة منخفضة سبخة، ويغطّي الماء جزءاً منها. وحيث لا يوجد مخرج لهذا الماء فإنه تتّجمع فيه في فصل الشتاء كمية كبيرة من الماء، إلاّ أنّها تجف في فصل الصيف، وبعد ذلك يُفْلح هذا المرج. ويسمّي الأهالي هذا المكان بمرج الغُرُق.

وباتجاه الزاوية الجنوبية الغربية من هذا المرج تقع قرية صانور، وهي محاطة بحصن، ويسكنها أناسٌ خشنون ومتمرّدون ومشاكسون، وقد وصف بعض الرحالة ثقافة هؤلاء الناس بأنها متدنيّة.

(1) ولد سنة 1816 وتوفي سنة 1895، كان رجل دين، ودرس العلوم اللاهوتية سنة 1844.

(2) S. Dryden Phelps, Holy Land with Glimpse of Europe and Egypt: A year's Tour, New York, Sheldon and Co., 1863

(3) ص 319



(32)

رحلة هنري بيكر ترسترام 1863-1864

أرض إسرائيل: جولة من الرحلات في فلسطين



رحلة هنري بيكر ترسترام[1] 1863- 1864:
أرض إسرائيل

يصف طريقه باتجاه القدس مروراً بنابلس في 24 شباط 1864 قائلاً[2]:

أمّا قلعة صانور الواقعة إلى الشمال قليلاً من جبع، فهي مكان مهمّ، بسبب موقعها على رأس تلة صخرية معزولة تشرف على مدخل المرج، ومن هذا الحصن تصدّت بنجاح لهجمات الجزار باشا سيء الذكر، ثمّ تمّ الاستيلاء عليها بعد ذلك وتدميرها، وكانت ما زالت خراباً عندما زارها الدكتور ربنسون، ولكن أعيد بناؤها فيما بعد، إلاّ أن أشجار الزيتون التي اقتلعها الأتراك لم يتم استبدالها، أمّا شيوخها الإقطاعيون، الذين كانت لهم ذات زمن سطوة شديدة على المنطقة، فقد لحقهم الهوان وأصابتهم الفاقة، ولم يعد المسافر يخشى من المرور عبر أوديتهم وحيداً.

ومن صانور ركبنا عبر مرج الغرق، وهو حوض فريد من نوعه وواسع إلى حدّ ما، ولا يوجد أي تصريف لمياهه من التلال المحيطة التي تجتمع مياهها في فصل الشتاء في هذه البحيرة الضحلة الواسعة، وقد شاهدنا هنالك طيور النكّات[3] وطيور الزَّقزاق الطنّانة الرائعة تمشي بخفّة وأناقة على الماء. وقد لوحظت أيضاً دجاجة المستنقعات والصقور وأنواع أخرى من الطيور تمشي فوق سطح البحيرة. وعندما عدت لزيارة هذا المكان في الأول من شهر نيسان وجدتُ الماء مازال موجوداً ووجدت طائر الطُوَّل وأنواعاً أخرى من فصائل الطيور الخائضة للماء مثل الزقزاق والطائر شوكّي الجناح والطائر المغفّل تتكاثر وتتناسل في ذلك المكان.

---

(1) Henry Baker Tristram, The Land of Israel, A Journal of Travels in Palestine, London, 1865، وصدر الكتاب بعنوان آخر هو: Travels and Discoveries in Palestine and Jordan, 2 Vols., Gorgias Press, New Jersay, 2006، وهنري بيكر ترسترام ولد سنة 1822 في بريطانيا، وتخرج من جامعة أكسفورد سنة 1844 في الكلاسيكيات، وحصل على الماجستير سنة 1846 حيث عيّن كاهناً، ثمّ ذهب إلى برمودا وأصبح سكرتيراً لحاكمها وقسيساً للجيش والبحرية. وزار فلسطين ومصر في شتاء 1861، ثمّ زارها ثانية سنة 1863- 1864، وزار فلسطين بعد ذلك في السنوات 1880- 1881، 1894، 1897. وعيّن في سنة 1884 القسيس الأكبر لإنجلترا، له عدة مؤلفات، توفي سنة 1906.

(2) 414

(3) وهو طائر مائي طويل الساقين ذو منقار نحيل طويل ملتوٍ عند طرفه إلى أعلى.



(33)

رحلة بيرت قبل سنة 1868

الشرق الأقصى: أو رسائل من مصر وفلسطين وبلدان أخرى في الشرق



رحلة بيرت (قبل سنة 1868):
الشرق الأقصى: أو رسائل من مصر وفلسطين وبلدان أخرى في الشرق [1]

في إحدى رسائله التي كتبها في Varna في العاشر من أيّار، يصف رحلته من نابلس إلى الناصرة، ويقول في جزء منها[2]:

"وفي اليوم التالي كانت الرحلة من سبسطية إلى جنين باتجاه الشمال الشرقي، وإذا كان أحد القرّاء يرغب في تتبع خطّ سير الرحلة، فإنه يمكنه أن يفعل ذلك مروراً ببرقة وجبع وصانور وقباطية، وبجوار هذه الأخيرة وصلنا في موعد الغداء. ولم يكن في رحلتنا بعد ظهيرة هذا اليوم شيءٌ ذو أهميّة، حتى إننا في بعض الأحيان كنّا نتسلّق الممرّات الوعرة والتلال الشاهقة ببطء وحريّة، حيث كان بإمكاننا أن نشاهد من بعض تلك القمم الهرمون الكبير عن يميننا والكرمل عن شمالنا. وفي مرّات أخرى كنا نغذّ السير وسط مروج واسعة عريضة وخصبة تكون تارة غامقة اللون بسبب بساتين الزيتون وتارة مضيئة بسبب مروج القمح الناضج. وفي أثناء سيرنا أشار دليلنا إلى أحد التلال حيث توجد قرية السيلة على مسافة ميلين من الوادي المشهور بالخصومات الدموية سيئة الذكر، وإلى بعض الأماكن التي كانت يجري فيها في هذا الوقت القتال مرّة أخرى.

وخلال هذه الرحلة لم نشاهد في سوريا ما شاهدناه بالقرب من تلك القرى من جماعات النساء يحملن خشب المدافئ على رؤوسهن متجهات نحو بيوتهنّ، كما أنني لا أذكر في أي مكان أنني لاحظت ما لاحظته في هذا الصباح من هذا الجمع الكبير من النساء يحملن هذه الأثقال الكبيرة على رؤوسهنّ، وبينهنّ فتيات في منتصف العمر وصبايا شقراوات قد جدّلن شعورهن ينؤن بتلك الأحمال...

---

(1) N.C. Burt, The Far East, or Letters from Egypt, Palestine, and Other Lands of the Orient, Cincinnati, R.W. Carroll and Co., 1868

(2) ص 300-301



(34)
رحلة فيكتور غيرين قبل سنة 1868
الوصف الجغرافي والتاريخي والأثري لفلسطين



رحلة فيكتور غيرين[1] قبل سنة 1868:
الوصف الجغرافي والتاريخي والأثري لفلسطين

يقول في وصفه لصانور وقد زارها وزار شيخها[2]:

"إنّ التلّة التي تقع عليها القرية الحديثة هي دائرية تقريباً في شكلها، وتظهر كما لو أنّها مصاطب متتابعة (Successive terraces)[3]، المنحدرات حادّة جداً، وفيها أحواض ماء عديدة محفورة في الصخر، والتلّة معزولة تماماً من ثلاث جهات، أمّا الجهة الرابعة وبسبب اللسان الصخري الطويل فإنها أكثر انخفاضاً من الربوة التي تقوم عليها القرية، وهي متصلة مع تلال أخرى، ويبدو أنها كانت مصمّمة كي تستخدم كحصن. ولذلك فإنها حمىً مسوّر تحيط بها أبراج كانت في الماضي تعلو قمة البلدة، أمّا الآن فهي أكبر قليلاً من بلدة، إنّ عدداً كبيراً من بيوتها قد أزيلت أو أعيد بناؤها جزئياً، أمّا بيت الشيخ الذي زرته فهي مثل حصن صغير".

---

(1) رحّالة وعالم فرنسي اسمه فيكتور هونور غيرين (Victor Honore Guerin)، عاش بين سنتي 1821-1891، ودرس الآثار في كلية الآثار الفرنسية في أثينا، زار فلسطين سبع مرّات بين سنتي 1854 و 1888، وألّف كتابه الذي ظهر بين سنتي 1868و 1900، وخصّص جزءاً من هذا الكتاب لمدينة نابلس.

(2) ورد هذا النصّ من رحلة فيكتور غيرين الفرنسي في كتاب كوندر وكيشنر ص 158 في حاشية حديثهما عن صانور، وسيأتي الحديث عنه لاحقاً.

(3) Victor Honore Guerin, Description Geographique, Historique et Archeologique de la Palestine, 1868





رحلة جوسياس لسلي بورتر 1868

دليل المسافرين إلى سوريا وفلسطين



رحلة جوسياس لسلي بورتر 1868 [1]: دليل المسافرين إلى سوريا وفلسطين

يقول في وصف الطريق من نابلس إلى جنين [2]:

أمّا جبع فإنها قديمة نوعاً ما، وهي قرية كبيرة، وتقع بصورة رائعة على الجزء الأسفل من سفح تلّة تطلّ على وادٍ خصيب، وهي محاطة من كلّ جوانبها بأشجار الزيتون الرمادية التي تنتشر بينها أيضاً بساتين التين الخضراء. ويقع على جانبها الشرقي وادٍ صغير ضيّق تمرّ من أسفله الطريق القادمة من نابلس. وهناك مظهر للعراقة والقدم تبدو على المكان من خلال البرج الضخم والحجارة الكبيرة القديمة المستعملة في بناء البيوت وجذوع الزيتون الضخمة، ممّا يزيدها روعة وجمالاً.

وتمرّ الطريق لمدة نصف ساعة عبر وادٍ ضيّق ثمّ تدخل إلى سهل جميل بقطر ثلاثة إلى أربعة أميال، وقد غطيّت التلال المنخفضة بأيكةٍ من شجر الزعرور والبلوط المقزم والقطلب تظهر بشكل مفاجئ في المرج. ويتشكل في هذا المرج حوضٌ مائيّ، ولا يوجد مخرج لتصريف المياه التي تتجمع فيه خلال فصل الشتاء، ويتحول مركز المرج إلى بحيرة، ولذلك حتى في فصل الصيف تبقى التربة مشبعة بالرطوبة، ولهذا السبب أطلق عليها اسم يناسب ذلك وهو "مرج الغُرُق".

وعلى قمة تلة مخروطية من الجهة الغربية تقف قلعة صانور، وهي لا تعدو الآن أن تكون كومة من الآثار مع أنها ما زالت مسكونة، وكانت في السابق وما زالت تخصّ عائلة من الشيوخ على غرار شيوخ أبو غوش، وهم، مثل الزعماء الإقطاعيين القدماء في بريطانيا، قد حكموا المناطق المحيطة حكماً مستقلاً. وفي حدود نهاية القرن الماضي قام

الجزار باشا أمير عكا سيء السمعة بمحاولة الاستيلاء على القلعة ومعاقبة شيوخها، ولكنه بعد محاصرتها لمدة شهرين اضطر أن يتخلّى عن مشروعه. وفي سنة 1830 تمرد شيخ صانور على عبدالله باشا الذي ضرب حصاراً على القلعة، ثمّ استدعى الأمير بشير لمساعدته على رأس قوة من متسلقي الجبال الأشدّاء، وبعد تطويق القلعة لمدة أربعة أشهر تمّ فتح ثغرات بالأسوار بقذائف المدفعية وتمّ اقتحام القلعة وهدمها.

---

(1) John Murray (Firm), Josias Leslie Porter, A handbook for travelers in Syria and Palestine, Part 2, London, John Murray, 1868، وهو غير جوسياس بورتر الذي مرّ الحديث عن رحلته سابقاً، أمّا جوسياس لسلي بورتر (1823– 1889) فهو مبشّر ومعلّم إيرلندي وسكن بعض الوقت في دبلن.

(2) 2: 334.

ومنذ ذلك الوقت فإنّ أبناء العائلة الذين تشتتوا بسبب ذلك قد تجمّعوا من جديـد وسكنوا بين آثارها، وقاموا بإعادة إعمار أسوارها القديمة تدريجياً.



(36)

رحلة كلاود راينييه كوندر إلى فلسطين 1872



رحلة كلاود راينييه كوندر[1] إلى فلسطين 1872[2]

عمل في الخيام في فلسطين

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى مرج ابن عامر[3]:

وفي السادس عشر من آب 1872 غادرنا نابلس ونقلنا خيمتنا باتجاه الشمال إلى قرية جبع. وكانت المنطقة التي دخلنا إليها غنيّة والقرى المحيطة بها واسعة ومزدهرة وفيها بعض البيوت الأنيقة المبنيّة من الحجر، وفيها زيتون وذرة طيبة، ويقال لها "مشاريق الجرّار" نسبة إلى عائلة مشهورة كان منها زعماء المنطقة حيث حكموها ذات زمن من مرج ابن عامر إلى نابلس جنوباً.

وكان شيخ القرية التي خيّمنا بها من هذه العائلة، وقد عامَلَنا أبناء هذه العائلة بكثير من اللطف والاحترام، مع أن هذا اللطف ربّما لا يكون كلّه نزيهاً أو بريئاً مائة بالمائة.

وكانت قرية جبع إلى الشرق من مخيّمنا، على سفح إحدى التلال، ومبنية بناءً متقناً من الحجر، وتحيط بها بساتين الزيتون. وإلى الشمال شاهدنا عبر سهل ضيّق إلى نابلس قرى قديمة أخرى تجثم على القمم، وقد ظهر خلفنا فجأة تلالٌ تمتد باتجاه الغرب في خط طويل من قمة جبل عيبال.

وإلى الشرق من جبع تقف قرية صانور المحصّنة بقوّة، على تلّة منعزلة تحرس الممرّ إلى سهل صغير يقال له مَرْج الغُرُق الذي ليس له أي تصريف مائي طبيعي، ولذلك يصبح في الشتاء مستنقعاً ويجف فقط في أيار أو حزيران.

وهذه القرية المحصّنة (صانور) جرى تحديد هويتها بأنها بيثوليا المذكورة في كتاب جوديث Book of Judith، المكان الذي كان بالقرب من دوثان (Dothan) لكنّ صانور تفتقر لخصيصة واحدة من خصائص ذلك الموقع، وذلك أنها لا تشرف على مرج ابن عامر، ومن اللافت "أنّ قرية ميسيلية (Mithilia) التي تبعد قليلاً إلى الشمال، لها إطلالة على مرج ابن عامر، واسمها كذلك قريبٌ من اسم بيثوليا، ويمكن مشاهدة المرج من السلسلة الجبلية

(1) ضابط بريطاني قام برحلات استكشافية مسحية لفلسطين. وقد كلّف بمهمة هذا المسح في صيف 1872 بعد عودة الكابتن ستيورات الذي سبقه إلى المسح في شهر كانون الثاني من سنة 1872، لكنّ مرضـاً اضطره إلى العودة إلى وطنه وخلفه كوندر على قيادة فريق المسح. ثمّ عاد كوندر إلى إنجلترا في شهر تشرين الأول 1875 بعد أن قام بمسح (4700) ميل مربع.

(2) Claude Reinier Conder, Tent Work in Palestine, London, Alexander P. Watt, 1889

(3) ص 53– 56.

القرية منها.

ويسكن زعيم بيت جرّار في صانور[1]، وابن شقيقه هو شيخ جبع، وأبناء العائلة الشباب أكثر من أن يعدّوا، وقد ابتُلينا بدعوات للزيارة لا نهاية لها منهم جميعاً. وقد دعانا آل جرّار في جبع إلى مأدبة طعام ممّا أتاح لنا أن نقف على مشاهد من حياة الفلاّحين لم تتح لغيرنا من الأوروبيين. وفي الساعة السادسة مساءً أرسلوا لنا إلى المخيم رجلاً كي يرافقنا إلى مكان الدعوة، فمشينا عبر القرية حتى وصلنا إلى أعلى بيت فيها، وهو بيت الشيخ.

السكّان جميعهم لطيفون بشكل رائع، وقد اشتهر عندهم عداؤهم لرجال قرية عرابة التي تبعد بعض الأميال إلى الشمال، وهم يمارسون السلب بشكل مروّع، ولكن في سنة 1868 جاءت إليهم الحكومة بعد أعمال شغب، وقتلت ثلاثين إلى أربعين منهم وغرّمت القرية غرامات باهظة وأخذت معظم شبابهم إلى الجنديّة.

كان بيت الشيخ مبيناً بناءً قويّاً وحديثاً، وكانت غرفة الاستقبال في الطابق العلوي ذات منصّة مرفوعة ولها درابزين (سياج) خشبي منخفض، ارتفاعه حوالي ستة إنْشات فوق الدرجة. وكانت الغرفة مفروشة بالسجّاد، والوسائد مصفوفة على الحائط في الطرف الأعلى في الزوايا حيث طلب منّا أن نجلس. وكانت الجدران مغلّفة بالجصّ وكانت بنّيّة جداً ومشقّقة. وقد بني على الطرف السفلي للغرفة رواقٌ للنوم.

ثمّ ظهر لنا الشيخ الآن بثوبه الأبيض وكوفيته الحريرية الصفراء على رأسه وعليها عقال أسود، وقام بخلع خفّه الأحمر عن قدميه المغسولتين جيّداً، ثم تقدّم إلى المنصّة

وصافحنا ثمّ وضع يده على صدره ثم على شفتيه ثم على رأسه في إشارة إلى صيغة من صيغ الترحيب "على قلبي وعلى فمي وعلى رأسي".

وكان الترحيب يتكرر بعبارات مثل "كيف صحتك؟ كيف سعادتك؟ كيف عبادتك؟ كيف سيادتك؟"، ثمّ تبعه شخص آخر وكرّر العبارات السابقة وأدّاها بلباقة.

وجلس المُضيف بعيداً بعضَ الشيء بل جلس على ركبتيه حتّى تمّ الإلحاح عليه للجلوس قريباً، فدنا تدريجياً وجلس جانباً على إحدى ركبتيه وقد أخفى رجليه بخفّة، ثم تبعه رجل كبير السنّ ثم ابن المضيف ثم ثالثٌ فرابعٌ جاءوا تباعاً، وكلّما جاء أحد وقفنا وقمنا بتأدية المراسم نفسها بوقار ولباقة يجعلان المرء ينسى للحظة ما أننا نتعامل مع فلاحين بسطاء.

ثمّ أحضر ناطور القرية وبعض الخدم طاولة خشبية مستديرة قطرها نحو ياردة واحدة لها أرجل بارتفاع ستّة إنشات، وهي مصنوعة من الخشب القويّ، فوضعت في المنتصف،

(1) كان من زعماء بيت جرّار في صانور في هذه المدّة قدّورة (عبد القادر) بن مفلح بن عبد الله بن الشيخ يوسف الجرّار، وقاسم داود الجرّار، وكان داود بن اسعيد الداود الجرّار شيخاً لجبع.

ثمّ أحضر حوض نحاسي ضخم وإبريق نحاسي له فوهة طويلة مثل دلّة القهوة، وقام ابن الشيخ بتوزيع المناديل، وقمنا بغسل أيدينا اليمنى استعداداً للأكل بها –وذلك لأنّ الأكل باليد اليسرى يعتبر في العادة انتهاكاً صارخاً للأخلاق تماماً كما تظهر قدماً واحدة.

ثمّ أحضرت دستة من الأطباق بشكل متلاحق، حيث كان يتناولها الرجل الشابّ من الخدم ويضعها على الطاولة، وقد اشتملت على العدس والبندورة والكوسا المحفورة المحشوّة بالأرز يقدّم معه الحليب الحامض (اللبن)، وصلصة لذيذة تناسب هذا اللون من الطعام، وقد وُزِّعَتْ بين الأطباق، ولكنّ وسط الطاولة ظلّ فارغاً إلى أن وصلت ثلاثة أطباق خشبية ضخمة من الأرز المكدّس بشكل مخروطي تعلوها قطعٌ من اللحم المسلوق بشكل بارز.

وكان أشهى الأطباق ، على أية حال، طبقٌ فيه جديٌ، ظنناه للحظة ما بأنه الغزال الصغير الذي كان معنا وقد أضعناه بعد ذلك، ثمّ راجعنا ظنّنا، والذي وزّع لحمه على الأطباق وظلّ رأسه ورجلاه على المائدة.

ولأننا أوروبيّون فإنّ الاختراع العظيم للملعقة والشوكة المصنوعة من القصدير كان مسموحاً لنا به، ولاشكّ أنه سينظر إليه من قبل الشيخ على أنه دليل رائع على الحضارة. وبعد ذلك تمّ توزيع أرغفة الخبز الرقيق غير المخمّر والمتين كالجلد، قطر الرغيف منها نحو قدم، وقد نثرت على السجّاد بجانب كلّ ضيف.

وقد طُلب منّا الاقتراب من المائدة، وكان علينا أن نضغط على مضيفنا لبعض الوقت كي يأكل معنا، وفي النهاية جلس معنا وانضمّ إليه اثنان، بينما قام ابنه بتقطيع اللحم إلى قطع صغيرة بيده اليمنى وعمل منها لفافات صغيرة بالخبز وتقديمها لنا لنأكلها. وقد وضعت كبدة الجدي وكلاه في ورق النبات واعتبرت من الأطعمة الشهيّة. كان الطعام كلّه ناضجاً وطيّباً ولكنّه مُدْهنٌ جداً على المذاق عند الأوروبيين، كما أن نقص الملح فيه جعله بلا نكهة.

لم يقدّم الماء على الطاولة، ولكن الخادم كان يحضره عند الطلب في كأس خضراء، وكلّما شرب أحد الضيوف كان جاره الأقرب يدير وجهه إليه مع انحناءة بسيطة ويقول له: هنيئاً، حيث يكون الجواب (حيث يوجد لكلّ صيغة جواب مناسب): الله يهنيك أكثر. يصاحب ذلك لمس الرأس باليد.

وعندما انتهى الطعام استند كلّ منّا إلى مكان جلوسه، وأحضر الحوض ثانية مع الماء والصابون، وهو أمر ضروري بعد استعمال الأصابع في الأكل. ثمّ وزعت القهوة على الجميع، بينما كانت دفعة جديدة من الناس تقبل على المائدة، ثمّ تبعتها دفعة ثانية وثالثة

حتى لم يبق من الطعام إلاّ القليل.

وكانت القهوة التي قدّمت صافية وأطيب من القهوة التركيّة الكثيفة التي تقدم عادة للرحّالة. شرب الضيوف القهوة بسرعة مع صوت ارتشاف عالٍ، وكانت الفناجين بحجم الكأس التي توضع فيها البيضة، وكان يُعبّأ نصفه فقط، وذلك لأنّ ملء الفنجان هو تلميح بأنّ المضيف ضاق ذرعاً بالضيف ويرغب أن يغادر حالاً، تماماً مثل معنى تقديم الفنجان الثالث بعد الثاني مباشرة.

وبعد ذلك قدّمت النارجيلة لاثنين منّا، كما قدّم الغليون والسجائر، بينما كان دريك (Drake) يتحدث واصفاً إنجلترا ولندن وسكّة الحديد، بينما أنا كان علي أن أجلس صامتاً، وهذا طبيعي، لأنني لا أعرف اللغة العربيّة.

وقد افترض الشيخ أننا كنّا نبحث عن صلبان بين الآثار وأننا بعد ذلك سندعي ملكية هذه الأماكن، وهو اعتقاد ربما نشأ بسبب الصلبان على عتبات الكنائس الأثرية منذ أيام الصليبيين والبيزنطيين.

وفي حوالي الساعة السابعة غادرنا المنزل وقد صحبنا الشيخ إلى الباب، ودسسنا قطعة من النقود في يد الخادم، وبعد ذلك أرسلنا هديّة من ملح البارود إلى الشيخ.

وبعد عدّة أيام تكرّر هذا المشهد في صانور، وكان مضيفنا هذه المرّة رجلاً صعب القياد يلبس عباءة سوداء، وكان أكثر مهابة، وكانت المعاطف الأرجوانية والصدريّات الخضر التي كانت يرتديها الشباب جعلتهم يبدون شباناً شديدي التأنق ونبلاء (إسبان أو برتغاليين) ولكنهم محليون.

وهذه القرية كانت شديدة القوة، وأنها صمدت مرّة لعدة أيام أمام هجوم القوات النظامية، ولم تستسلم إلاّ بعد أن قام الباشا بقصفها بالمدفعية.

وقد وصف أحد كبار السنّ دخول قذيفة مدفع إلى غرفة كان يخزّن فيها القطن وكيف أنّ هذه الكومة الناعمة تكوّرت على نفسها.

وقد صرح الشيخ العجوز –الذي كان يوماً حاكماً للمنطقة– بمرارة ضدّ الأتراك قائلاً: إنّهم يسرقونني ويجعلونني فقيراً. ثمّ قال: هل على نسائي أن تحمل الحطب وتجلب الماء؟ وهل على أبنائي أن يحرثوا الأرض؟ إنّ الحكومة كانت تتبع السياسة نفسها مع آل جرّار، وهي السياسة التي أزالت حكم الزيدانيين في الشمال وحكم أبو غوش في الجنوب، وبالتأكيد حطمت الروح الوطنية، بينما تخمد أي تمرّد لجميع القوى، ممّا أدّى إلى استمرار الخلافات المحلية بين القرى المتجاورة.

وكانت أكثر النقاط إثارة للانتباه في تصرّفات أبناء هذه الأسرة الرفيعة المحتد، هي توقير كبار السنّ، حتى وجدنا الرجال من ذوي اللحى البيضاء يوقّرون من يكبرهم بعشر سنوات. وقد لاحظنا في جبع أن خطيب القرية وإمامها جلس في مكان أعلى من مضيفنا زعيم القرية بعد أن تناولنا الطعام هناك.

وفي يوم الجمعة، 30 آب 1872 غادرنا جبع وتوجهنا إلى جنين.





(37)

رحلة ديلابلانش سنة 1873

الحج: رحلة إلى مصر وفلسطين وسوريا والقسطنطينية



رحلة ديلابلانش سنة 1873[1]:
الحجّ: رحلة إلى مصر وفلسطين وسوريا والقسطنطينية

يقول في وصف الطريق من نابلس إلى الناصرة مروراً بصانور[2]:

وما هو إلاّ أن لمحنا على الجهة اليسرى مدينة صانور الصغيرة الواقعة فوق تلة مستديرة، وهي بيثوليا القديمة، موطن جوديث، وهذا المكان يتفق تماماً مع الكتاب المقدس: ومن جهة على بعد مسافة صغيرة توجد جبال السامرة حيث أن سكان هذه الجبال كانوا يحتلون المنطقة.

وبالقرب من بيثوليا سهلٌ رائع حيث كانت تقام القدّاسات الأشورية داخل الخيم.



(1) J.C. Delaplanche, Le Pelerin: Voyage En Egypte En Palestine, En Syrie A Smyrne Et A Constantinople, A lIvarot, 1875.

(2) ص 178



(38)

رحلة كوندر وكيتشنر قبل عام 1876

المسح العام لغربي فلسطين



رحلة كوندر وكيتشنر قبل عام(بحدود) 1876:
المسح العامّ لغربيّ فلسطين(1)

في حديثهما عن مشاريق الجرّار(2) (عصيرة الحطب، وعنزة، والفندقومية، وجبع، والجديدة، وجربا، وقباطية، وميثلون، ومركة، ومسلية، وصانور، وسيريس، وطلوزة، وياصيد، والزاوية) يقول في وصف صانور(3):

قرية صغيرة محصّنة، في موقع قويّ جدّاً، تحرس الممرّ المؤدي إلى المرج في شرقيها، وتقع القرية على رأس تلّة منعزلة، ويمكن الوصول إليها فقط عن طريق سلسلة صخرية منخفضة إلى الشمال الغربي من السلسلة الرئيسية. وما تزال أجزاء من السور المحيط بها ماثلة للعيان، ويتخذ المكان شكل حصن قديم، وبيوتها عالية ومبنية بإتقان ولاسيّما قصر الشيخ.

ومازالت كرسيّاً لفرع من عائلة جرّار، وقد كان المكان في ما مضى محصّناً، وقد صمد أمام حصار دام ستة أشهر فرضه عليه الجزار باشا ولكن دون أن يتمكن من أخذه. وفي سنة 1830 تمّ أخذ القلعة من قبل عبد الله باشا بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من الحصار، وذلك لأنّ شيخ القلعة قد حذا حذو ظاهر العمر في إعلان نفسه مستقلاً.

وقد تمّ تدمير المكان بسبب قصفه سنة 1840 حيث قام إبراهيم باشا بتدميره.

وهذا الحصن الذي بناه آل جرّار لم يتمّ إصلاحه، ولكنّ المكان الآن مأهول ويسكنه نحو مائتين إلى ثلاثمائة نسمة.

ويقول عن قرية جبع(4):

قريةٌ أنيقة على سفح إحدى التلال، بيوتها مبنية من الحجر بإتقان وهي محاطة

---

(1) C.R. Conder, H.H. Kitchener, The Survey of Western Palestine, Vol. II, Samaria, Ed. Palmer and Walter Besant, The Committee of the Palestine Exploration Fund, London, 1882، أمّا كيتشنر فهو هوراتيو هربرت كيتشنر (Horatio Herbert Kitchener) ولد سنة 1850 في بريطانيا، والتحق بالأكاديمية العسكرية الملكية سنة 1871، وأعير إلى صندوق استكشاف فلسطين في 1874، وكان معه الليفتنانت كوندر، وعين في سنة 1911 قنصلاً عامّاً لبريطانيا في مصر، وتوفي 1916.

(2) ص 155 – 158.

(3) ص 157.

(4) ص 155 – 156

ببساتين الزيتون البديعة، وفيها عدّة عيون ماء، وقد نصبنا خيمتنا إلى الغرب من القرية على أرض زراعية مفتوحة، قريبة من أحد الآبار التي يوجد عندها شادوف أو دلو لاغتراف الماء. وبالقرب منّا طين فخّاري ومصنعٌ للخزف في القرية.

ويعدّ هذا المكان كرسيّ (أو مقرّ حكم) عائلة جرّار الشهيرة، الذين كانوا ذات يوم حكّام هذه الناحية. ومن الواضح أنها موقع قديم، فهناك في شرقي القرية قبرٌ من الصخر المقطوع. ويبدو أنّ هذا المكان هو جبع التي تبعد ستة عشر ميلاً إلى الشرق من قيسارية (جاباثون)، مع أنّ المسافة ليست دقيقة، ولعلها أيضاً جبع المذكورة في كتاب جوديث.



(39)

رحلة أندرو ألكساندر بونار سنة 1878
قصة زيارة إلى الأرض المقدّسة، ومهمة استطلاعية لأحوال اليهود



رحلة أندرو ألكساندر بونار سنة 1878[1]:
قصة زيارة إلى الأرض المقدّسة، ومهمة استطلاعية لأحوال اليهود 1875[2]:

يقول في وصف صانور لدى مروره بها قادماً من سبسطية وبرقة وجبع متوجهاً إلى جنين ومرج ابن عامر والجليل[3]:

انطلقنا في السادسة من صباح اليوم التالي (21/ 6) ومررنا بجانب سفح تلة صخرية شديدة الانحدار تقف عليها قلعة صانور المدمّرة، وهي من آثار الحقبة الصليبية....

ثمّ سرنا بمحاذاة مجمع مائي كبير كنّا قد شاهدناه في الليلة السابقة، من رأس الوادي، والعرب يسمّونه مرج ابناما[4] (Merj Ibnama). وهو لا يعدو كونه تجميعاً لمياه الأمطار الأخيرة، وهو يجف عادة في فصل الصيف، وقد هطلت هذا العام أمطارٌ أكثر بكثير من العادة، وعدّها الناس كافية في هذا الفصل المتقدّم، وهي تشبه إلى حدّ كبير منطقة Compensations Pond الواقعة بين تلال بنتلاند Pentland بالقرب من إدنبرة.

وقد اقتربنا من رجلين يحرثان الأرض بمحراث يجره ثور، ولاحظنا أنهما كانا يرفعان المحراث بيد واحدة فقط، وقد بدت الأرض غنية وخصبة، واكتست بآلاف الأزهار الزرقاء التي تشبه النجوم في شكلها، لكننا لا نعرف اسمها. وتتخللها هنا وهناك شقائق النعمان الأرجوانية، وأنواع كثيرة جداً من الزنابق والخزامى، وكانت التلال المحيطة بالسهل مكسوّة بالأشجار البريّة، بينما تمدّ أشجار التين والزيتون أغصانها إلى مسافات قصيرة بعيداً عن سيقانها الأصلية.

---

(1) رجل دين ولد في إدنبره سنة 1810، ودرس العلوم اللاهوتية في جامعة إدنبرة، أمضى مدّة في فلسطين سنة 1839. عمل مديراً للكنيسة الحرّة في جلاسكو، وتوفي في جلاسكو سنة 1892.

(2) Andrew Alexander Bonar, Narrative of a Visit to the Holy Land: and, Mission of Inquiry to the Jews, 1878, William Oliphant, Edinburgh

(3) ص 224.

(4) ربّما محرّفة عن: مرج ابن عامر، مع أنّ المقصود مرج الغُرق.



(40)

رحلة الكولونيل سير تشارلز ويلسون 1881

مناظر من فلسطين وسيناء ومصر



رحلة الكولونيل سير تشارلز ويلسون 1881: مناظر من فلسطين وسيناء ومصر[1]

يقول عن الرحلة من نابلس إلى جنين[2]:

وبعد مغادرة سبسطية فإننا نسافر باتجاه الشمال عبر أوديةٍ وتلالٍ شديدة الانحدار مارّين بالقرب من قرىً عديدة التي تمثل صانور، بقلعتها وبيوتها العنقودية المتلاصقة المقامة على قمة صخرية، الأكثر روعة.



(1) Colonel Sir Charles W. Wilson, Picturesque Palestine, Sinai and Egypt, 4 Vols., London 1881

(2) 2: 21.





(41)

رحلة لورنس أوليفانت 1882

حيفا أو الحياة في فلسطين الحديثة



رحلة لورنس أوليفانت[1] 1882 بعنوان:
حيفا أو الحياة في فلسطين الحديثة[2]

يقول في رحلته من نابلس إلى جنين مروراً بالفندقومية وجبع وصانور، وذلك في رسالته التي كتبها من حيفا في 3 تشرين الثاني 1882[3]:

"ثمّ هبطنا نحو بساتين قرية الفندقومية حيث يوجد كهف نادر يستحق الزيارة يحتوي على تجويفين يوجد قبلهما كتلة حجرية متصلة بهما تشبه مذبح الكنيسة. ولعلها تكون معبداً قديماً منحوتاً في الصخر.

وقريباً من هذه القرية توجد قرية أخرى تدعى جبع التي كنت أتوق لزيارتها، وقد تلقيت دعوة لزيارتها من الشيخ[4] الذي يعيش هناك، وهو من أكثر شيوخ البلاد غنىً وقوة. وقد دعاني أثناء وجودي في حيفا. إنّ هذا الشيخ يمثل عائلة جرّار العظيمة، التي كانت ذات زمن تحكم هذه المنطقة حكماً مستقلاً متحدّية الحكومة التركية، وفارضة الضرائب على السكان، في الوقت الذي كانت فيه على عداءٍ دائم مع عائلات منافسة كانت بدورها تقيم حكماً محليّاً في مناطق أخرى من البلاد.

وقد تمّ القضاء على هذا الوضع خلال الحكم المصري للبلاد على يد إبراهيم باشا.

وعندما أعيدت البلاد إلى الحكم التركي نتيجة التدخل البريطاني مضت الحكومة التركية في محاولة منع عودة ذلك الوضع مستخدمة بذلك القوّة في كثير من الأحيان. ولذلك فإنّ أكثر من شيخٍ من هؤلاء الشيوخ المحليين يستطيع أن يشير لك إلى ثغرة في جدار بيته سببها قذائف المدفعية التركية.

وبعض هؤلاء الشيوخ متأثرون بدرجات متفاوتة بالحضارة الجديدة، ويجدون أن من الممكن أن ينافسوا المسؤولين بنجاح في نهب الفلاحين، ولذلك فإنهم يقيمون صداقات مع هؤلاء الفلاّحين إمّا لمقاسمتهم وإمّا للحصول على مساعدتهم في جني المحاصيل.

---

(1) مؤلف كتاب أرض جلعاد وكتب أخرى، وقد ولد في كيبتاون في سنة 1829، وعمل في واشنطن وكندا والصين، ثمّ ذهب إلى الهند. ثمّ عاد إلى إنجلترا، وأصبح نائباً في البرلمان، لكنه ترك البرلمان بعد ذلك وكتب رواية هجائية عنوانها: بيكاديللي. في عام 1882 أنشأ هو وزوجته جمعية للمهاجرين اليهود في حيفا. وتوفي في بريطانيا سنة 1888.

(2) Laurence Oliphant, Haifa or Life in Modern Palestine, William Blackwood and Sons, Edinburgh and London, 1887.
والكتاب عبارة عن رسائل كتب بها إلى جريدة نيويورك صن يصف فيها رحلته في فلسطين سنة 1882.

(3) 361 – 363.

(4) كان شيخ جبع في هذه المدّة الشيخ محمد الداود الجرّار.

وبجوار هذه القرية هنالك مرجٌ يقال له: مرج الغُرُق، لأنه في معظم أوقات السنة يكون مستنقعاً ولا محاصيل فيه، وعندما يجفّ فإنّ آلاف الهكتارات تصبح صالحة للزراعة. وقبل مدّة ليست بعيدة سألني أحدهم بخصوص إمكانية تصريف هذه المياه، حتى إن بعض المهندسين ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قام بتقدير تكاليف هذه العملية. وعلى الرغم من أنّ المبلغ المقدّر لذلك كان متواضعاً إلاّ أنه يبقى أكثر من أن يغامر به أصحاب رؤوس الأموال. لكن الحقيقة الساطعة في كونهم يمكن أن يستمتعوا بمثل هذه الفكرة كانت دليلاً ناصعاً على التقدم من جهة هؤلاء الرجال الذين يعتمدون على جيوب جيرانهم فقط وهم يفكرون بتصريف المياه.

وعلى الرغم من أنني كنت سأقابل أشخاصاً رائعين من الزعامات الوطنية، إلاّ أنني وجدت بأن توقفي في جبع قد استغرق منّي يوماً، ولذلك قررت أن أمضي في طريقي دون أن أسمح للشيخ أن يشك في قربي من مقرّ ضيافته، فمشيت في ممرّات جانبية بدلاً من سلوك الطريق المستخدمة إلى جنين (واسمها القديم إنجانين Engannin) أي ربيع البساتين. ومنها وفي رحلة ليوم واحد عبر مرج ابن عامر، وصلت إلى حيفا.



(42)

رحلة جودريش فرير 1903

رحلة عبر سورية



رحلة جودريش فرير 1903[1]:
رحلة عبر سورية

يقول[2]:

"وغادرنا سبسطية، ونحن نودّ لو كان الوقت يسمح لنا بإطالة المقام فيها، وسرنا في طريق حافلة بالمشاهد الجميلة باتجاه الشمال الشرقي. وبعد أن مررنا بقرية جبع شاهدنا على مقربة قرية صانور، وفيها قلعة كان باشا عكّا الظالم قد هدمها بعد أن قاوم القرويون حصار جنوده، ولابدّ أن شجاعة أولئك القرويين أثارت في نفس ذلك الباشا مشاعر الحقد حتى أقدم على هدم تحصينات القلعة، وكان ذلك عملاً دالاً على الجبن".



(1) Goodrich- Freer, In a Syrian Saddle, Methuen & Co. London, 1905.

وما ننقله هنا هو من فصل ترجمه سليمان موسى في كتابه في ربوع الأردن من مشاهدات الرحالة (1875-1905)، منشورات دائرة الثقافة والفنون- عمّان، 1974، ص 245- 280.

(2) في ربوع الأردن ص 270.



ملحق الصور



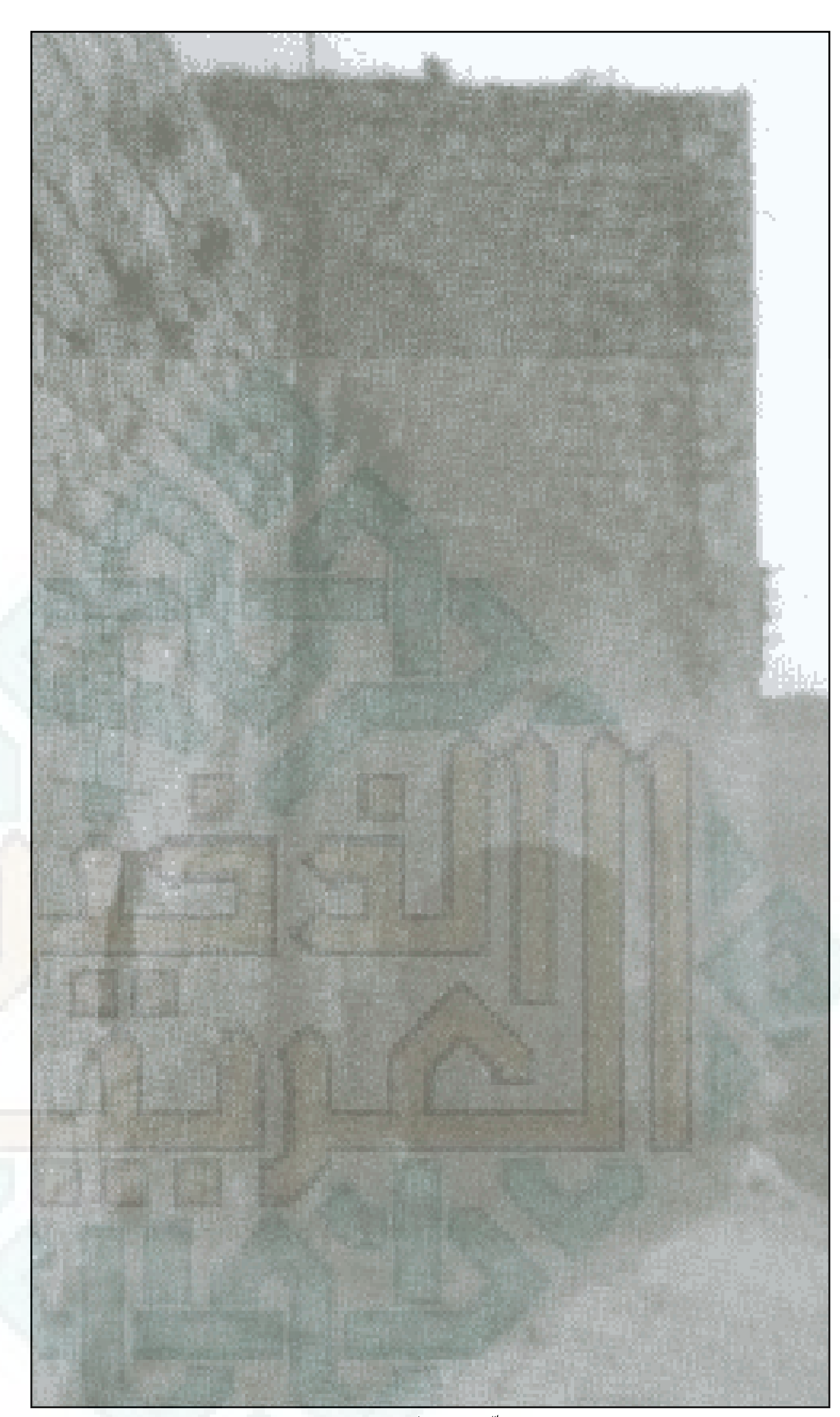




قلعة صانور سنة 1867 من ألبوم الصور الفرنسي
فيلكس بونفيلز (1831 - 1885)



من بوّابات قلعة صانور



من بوّابات قلعة صانور



من بوّابات قلعة صانور



من بوّابات قلعة صانور



من أسوار قلعة صانور ومداخلها

من مداخل قلعة صانور





من بوّابات قلعة صانور



من أسوار قلعة صانور



أحد أبراج القلعة



ماري إليزا روجرز التي زارت صانور سنة 1855 – 1857



الدكتور وليام ثومسون الذي زار صانور 1857

JAMES FINN

1806–72



جيمس فنّ الذي زار صانور سنة 1853

HORATIO HERBERT KITCHENER

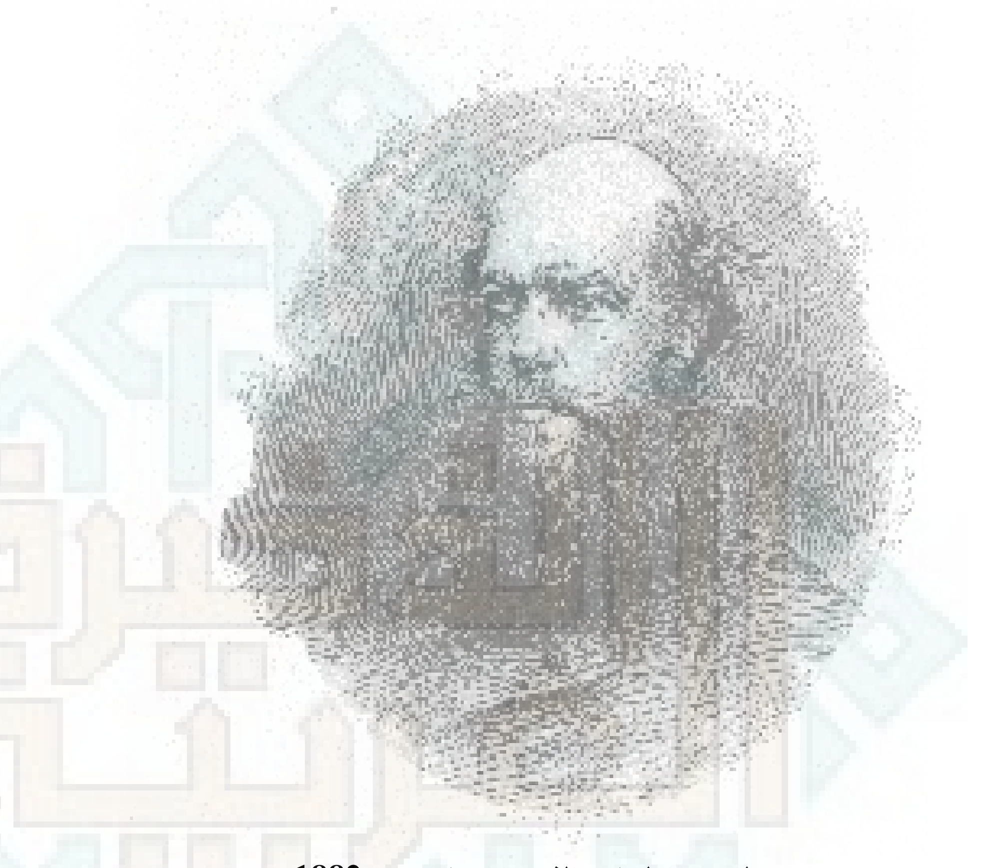
1850–1916



آرثر ستانلي الذي زار صانور سنة 1852

LAURENCE OLIPHA

1829-88



لورنس اوليفانت الذي زار صانور سنة 1882

HORATIO HERBERT KITCHENER

1850–1916



هوراتيو هربرت كتشنر الذي زار صانور 1876

HENRY BAKER TRISTRAM



هنري بيكر ترسترام الذي زار صانور سنة 1863

EDWARD ROBINSON

1794–1863



Edward Robinson

الدكتور إدوارد روبنسون / زار صانور سنة 1838

JAMES SILK BUCKINGHAM

1786–1855



James Silk Buckingham and his wife in oriental dress

جيمس سلك بكنغهام / زار صانور سنة 1816



صانور

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع بالعربية.

1. إبراهيم الدنفي السامري، ظاهر العمر وحكام نابلس (1771- 1773)، تحقيق موسى أبوديّة.
2. المعلم إبراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، مطبعة دير المخلص، صيدا، لبنان، 1936.
3. إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة النصر التجارية، نابلس، 1961.
4. الدكتور أسد رستم، بشير بن السلطان والعزيز (1804- 1841)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1956.
5. القسّ أسعد منصور، تاريخ الناصرة، دار الهلال، القاهرة، 1923.
6. ألكزاندر شولش، تحوّلات جذرية في فلسطين (1856- 1882)، ترجمة د. كامل جميل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمّان، ط2، 1993.
7. إلياس ديب مطر، كتاب العقود الدرّية في تاريخ المملكة السوريّة، مطبعة المعارف، بيروت، 1874.
8. بشارة دوماني، إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس 1700- 1900، سلسلة المدن الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 1998 (ترجمة حسني زينة).
9. حسن الشهير بان الصّديق، غرائب البدائع وعجائب الوقائع، قام بدراسته وتحقيقه الدكتور يوسف نعيسة، دار المعرفة، دمشق، ط1، 1988.
10. حسني أدهم جرّار، أسرار حملة نابليون على مصر والشام، دار الضياء، عمّان، 1990.
11. حسني أدهم جرّار، جبل النار... تاريخ وجهاد (1700- 1900)، دار الضياء، عمّان، ط1، 1990.
12. الأمير حيدر أحمد شهاب، تاريخ أحمد باشا الجزّار، نشره ووضع مقدّمته: الأب أنطونيوس شبلي والأب أغناطيوس عبده خليفه، مكتبة أنطوان، لبنان.
13. الأمير حيدر أحمد الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيّين وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب: الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، عني بضبطه ونشره:

الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، 1969.

14. داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام 1832، المطبعة الرحمانية بمصر.

15. رستم باز، مذكّرات رستم باز، حقق نصّها ونشرها: فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ط2، 1968.

16. سليمان أبو عزّ الدين، إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، 1929.

17. سليمان موسى، رحلات في الأردن وفلسطين (المجموعة الثانية)، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمّان، 1987.

18. سليمان موسى، في ربوع الأردن من مشاهدات الرحّالة (1875- 1905)، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمّان، 1974.

19. صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت 764هـ)، أعيان العصر وأعوان النصر، حققه الدكتور علي أبو زيد وآخرون، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ط1، 1998.

20. الشيخ طنّوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، حققه الدكتور مارون رعد، دار نظير عبّود، لبنان، 1995.

21. عادل منّاع، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (1900- 1918)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط3، 1997.

22. الشيخ عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، حققه محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1963.

23. عبد الهادي جرّار، تاريخ ما أهمله التاريخ، دار الجليل للنشر، عمّان، ط1، 1988.

24. عبلة سعيد المهتدي، سجل محكمة القدس الشرعية، فهرسة تحليلية، قيود الوثائق والحجج الشرعية الصادرة عن محكمة القدس الشرعية، إشراف أ.د. محمد عدنان البخيت، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، 2009.

25. عزّتلو إسكندر بك أبكاريوس، المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، مطبعة حمص، 1910.

26. عبوّد الصبّاغ، الروض الزاهر في تاريخ ظاهر، تحقيق الدكتور محمد عبد الكريم محافظة والدكتور عصام مصطفى هزايمة، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد،

الأردن، ط1، 1999.

27. عبّود الصبّاغ، الروض الزاهر في تاريخ ضاهر، مخطوط في مكتبة الجامعة الأردنية.

28. عيسى إسكندر معلوف، مجلة الآثار، السنة الرابعة، كانون الثاني، 1927، زحلة لبنان.

29. فيليب وفريد الخازن (تعريب)، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، ط دار نظير عبود، لبنان.

30. كرنيليوس فنديك الأميركاني، كتاب المرآة الوضيّة في الكرة الأرضيّة، (ألفه سنة 1852م)، ط2، بيروت، 1870.

31. محمد بن عبد الوهاب المكناسي، رحلة المكناسي: إحراز المعلّى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب 1785، حققها وقدم لها محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع/ أبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت، 2003.

32. محمد عزّت دروزة، العرب والعروبة في حقبة التقلب التركي من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر الهجري، الجزء الخامس، منشورات المطبعة العصرية، صيدا، لبنان، ط2، 1981.

33. مصطفى العبّاسي، تاريخ آل طوقان في جبل نابلس، مطبعة دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر، شفا عمرو، 1990.

34. صطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين: في الديار النابلسية، 2ج، مطبوعات رابطة الجامعيين بمحافظة الخليل، ط2، 1985.

35. مصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، 1979.

36. ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث جرت بالشام وسواحل برّ الشام والجبل (1782- 1841)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عبد الكريم محافظة، ورد للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2004.

37. ميخائيل الصبّاغ، تاريخ ظاهر العمر، مخطوط بمكتبة الجامعة الأردنية.

38. الدكتور ميخائيل مشاقه، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، حققه الدكتور أسد رستم وصبحي أبو شقرا، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة،

مديرية الآثار، بيروت، لبنان، 1955.

39. نعمان أفندي قساطلي، كتاب الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء، بيروت، 1897.

40. نوفل بن نعمة الله نوفل الطرابلسي، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبرّ الشام، أوجزه: جرجي ينّي، حققه: ميشال أبي فاضل و الدكتور جان نخّول، ط جروس برس، طرابلس، لبنان، 1990.

41. نوفل بن نعمة الله بن نوفل الطرابلسي، كشف اللثام (مخطوط مصوّر في مكتبة الجامعة الأردنية).

42. يوسف الدبس، الجزء الرابع من تاريخ سورية، المجلد الثامن، المطبعة العمومية، بيروت، 1905.

43. مؤرّخ مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، علّق حواشيها الدكتور أسد رستم.

المصادر والمراجع الأجنبية

1. ***Beamont,*** William, A Diary of a Journey to the East in the Autumn, 1854, 2Vols., Longman, London, 1856.

2. ***Blondel***, Edouard, Deux Ans En Syrie et En Palestine (1838- 1839), Paris, 1840.

3. ***Bonar,*** Andrew Alexander, Narrative of a Visit to the Holy Land: and, Mission of Inquiry to the Jews, William Oliphant, Edinburgh.

4. ***Bovet,*** Felix, Egypt, Palestine and Phoenicia: A Visit to Sacred Lands, London, 1882.

5. ***Browne***, William G., Travels in Africa, Egypt and Syria from the Year 1792 to 1798, Longman, London, 1799.

6. ***Buckingham***, James Silk, Travels in Palestine through the Countries of Bashan and the Gilead East of the River Jordan, 2 Vols., London, Longman, 1822.

7. ***Burt***, N.C., The Far East, or Letters from Egypt, Palestine and Other Lands of the Orient, Cincinnati, R.W. Carroll and Co., 1868.

8. ***Caroline***, Queen, Voyages and Travels of Her Majesty Caroline Queen of Great Britain, by One of Her Majesty's Suite, Jones and Co., London, 1821.

9. ***Churton***, H.B. Withaker, Thoughts of the Land of the Morning: a Record of the Visits to Palestine, 2nd Edition, London, 1852.

10. ***Conder***, Claude Reinier, Tent Work in Palestine, London, Alexander Press, Watt, 1889.

11. ***Clarke***, Edward Daniel, Travels in the Holy Land, Philadelphia, 1817.

12. ***Delaplanche***, J.C., Le Pelerin: Voyage En Egypt En Palestine, En Syrie a Smyrne Et a Constantinople, A IIvarot, 1875.

13. ***Freer***, Goodrich-, In a Syrian Sadle, Methuen & Co., London, 1905.

14. ***Finn***, James, Byways in Palestine, London, 1867.

15. ***Finn***, James M.R.A.S, Stirring Times, or Record from Jerusalem Consular Chronicles of 1853 to 1856, 2 Vols., C. Degan Paul & Co., London, 1878.

16. ***Guerin***, Victor Honore, Description Geographique, Historique et Archeologique de la Palestine, 1868.

17. ***Harris***, Jessup Henry, Fifty Three Years in Syria, 2 Vols., London and Edinburgh.

18. ***Kelly***, Walter Keating, Syria and the Holy Land: Their Scenery and Their People, London, Chapman and Hall, 1844.

19. ***Kitchener H.H.,*** Conder, C.R, The Survey of Western Palestine, Vol. 2, Ed. Palmer and Walter Besant, The Committee of the Palestine Exploration Fund, London, 1882.

20. ***Michaud***, M, et Pujoulat M., Correspondance d' Orient 1830-1831, Paris, 1834.

21. ***Mislin***, M., Les Saints Lieux: Pélerinage a Jerusalem, 1851.

22. ***Monro,*** Vere, A Summer Ramble in Syria, 2 Vols., Richard Benthley, London, 1835.

23. ***Murray***, (Firm) John (Firm), Josias Leslie Porter, a Handbook for Travelers in Syria and Palestine, Part 2, London, John Murray, 1868.

24. ***Olin***, Stephen, Travels in Egypt, Arabia Petraea and Holy Land, 2 Vols., Happer and Brothers Publisher, New York, 1860.

25. ***Oliphant***, Laurence, Haifa or Life in Modern Palestine, William Blackwood and Sons, Edinburgh and London, 1887.

26. ***Osband***, Linda, Famous Travellers to the Holy Land, Prion, London, 1989.

27. ***Phelps***, Dr. Sylvanus Dryden, Holy Land with Glimpse of Europe and Egypt: A year's Tour, New York, Sheldon and Co., 1863.

28. ***Philipp***, Thomas, Acre, The Rise and Fall of a Palestinian City 1730- 1831, Columbia University Press, New York, 2001.

29. ***Polk***, William R., The Opening of South Lebanon 1788- 1840, Harvard University Press, 1963.

30. ***Porter***, Josias, The Modern Traveller, a Popular Description of the Various Countries of the Globe: Palestine, London, 1824.

31. ***Richardson***, Robert, Travels along the Mediterranean and Parts Adjacent, in company with the Earl of Belmore, 2 Vols., London, 1822.

32. ***Robinson***, Edward, Eli Smith, Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea, 3 Vols., a Journal of Travels in the Year 1838, London, 1841.

33. ***Rogers***, Mary Eliza, Domestic Life in Palestine, Cincinnati: Jennings and Pye. New York, Eaton and Mains, 1859.

34. ***Russell***, Michael, Palestine or the Holy Land from the Earliest Period to the Present Time, New York, Harper's Stereotype Editions, 1838.

35. ***De Saulcy***, F. Saulcy, Narrative of a Journey Round the Dead Sea and in the Bible Lands in 1850 and 1851 including an account of the Discovery of the sites of Sodom and Gomorrah, edited by Count Edward de Warren, 2 Vols., London, 1854.

36. ***Schur***, Nathan, Twenty Centuries of Christian Pilgrimage to the Holy Land, 1992.

37. ***Spencer***, Jesse Ames, Egypt and the Holy Land, new York, 4the Edition,1857.

38. ***Stanley***, Arthur Penrhyn, Sinai and Palestine in Connection with their History, Redfield, New York, 1857.

39. ***Stewart***, Robert Walter, The Tent and the Khan: a Journey to Sinai and Palestine, Edinburgh, William Oliphant and Sons, London, Hamilton, Adams and co., 1857.

40. ***Stephens***, George, Incidents of Travel in Egypt, Arabia Petraea and Holy Land, 2 Vols., London, Richard Bentley, 1838.

41. ***Tristram***, Henry Baker, The Land of Israel, a Journal of Travels in Palestine, London, 1865.

42. ***Thomson***, William M., The Land and the Book, 2 Vols., New York, Harper and Brothers Publisher, 1859& 1883.

43. ***Turner,*** William, Journal of a Tour in the Levant, 2 Vols., John Murray, London, 1820.

44. ***Wilson***, Colonel Sir Charles W. Wilson, Picturesque Palestine, Sinai and Egypt, 4 Vols., London, 1881.

45. ***De Velde***, C.W.M. Van, Narrative of a Journey through Syria and Palestine in 1851 and 1852, 2 Vols. Ed. William blackwood and Sons, Edinburgh and London, 1854.

46. ***De Velde***, C.W.M. Van, Memoir. To Accompany the Map of the Holy Land, Justus Perthes, 1858.

فهرس الموضوعات

